كتابك
٣٨

دكتور دمرداش أحمد

يوميات طبيب في الأرياف

دار المعارف

هـذا الكتاب

مذكرات ثلاثين عامًا من شاب طبيب لم يتمرس بالحياة إلا بين الكتب والدرس والتحصيل فى قلب الريف .. تتسم بالصدق فى تصويرها لجوانب الحياة الريفية .. وتحمل كثيراً من العبرة للطبيب الناشئ .. والمتعة لكل قارىء .

٤٥٠٤٢١/١

١٠ ج

كتابك ٣٨
رئيس التحرير أنيس منصور

دكتور مرداش أحمد

يوميات طبيب فى الأرياف

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه اليوميات . .

هذه الصفحات تحوى سطوراً من صميم الواقع ، ليس لخيال القصاص ولا لفن الكاتب أثر فيها ، كتبها الطبيب منذ حوالى ثلاثين عاماً ، صور فيها حقبة من شبابه وهو ناشئ يخطو أولى خطواته فى حياته العملية بين عيادته ومكتبه الحكومى فى الريف ، عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره حديث التخرج فى كلية الطب ، لم يتمرس بالحياة إلا بين الكتب والدرس والتحصيل والامتحان .

وحين يُعاد نشرها الآن يكون الطبيب قد جاوز السبعين من عمره ، وقطع رحلة طويلة فى الحياة ، ذاق أحلى ما فيها ، كما تجرع أشد كؤوسها مرارة . وإنه ليعيد قراءة هذه الصفحات المطوية فيرى أنها لا تزال شديدة الصدق فى تصويرها لجوانب من الحياة فى ريفنا المصرى ، كما أنها تحمل كثيراً من العبرة للطبيب الناشئ ، وشيئاً من المتعة لكل قارئ .

د . دمرداش أحمد

١

اليوم ١٠ فبراير سنة ١٩٣١ .

إنه اليوم الموعود فى حياة طبيبنا الناشئ . إنه عيد الأعياد فى حياته .

إنه اليوم الذى ظل يعمل جاهداً كل سنى دراسته ليصل إليه . . .

إنه اليوم الذى سيفتح فيه عيادته للمرة الأولى ، سينشئ هذه المملكة الصغيرة التى سيكون سيدها ووليها والحاكم بأمره فيها . سيأمر فيطاع . وسيأمر من شاء بما يشاء ، وأخيراً ستدر عليه أخلاف الرزق ، حين تزدحم عيادته بطلاب علمه وطبه . اليوم فقط ، ذلت له بارقات المنى ، ودانت له حسان الآمال . لقد نسى كل ما اصطدم به فى الحياة من هموم ، أو على الأقل ما صوره له خيال الشباب أنها هموم . نسى متاعب الدرس والتحصيل . نسى سهر الليالى الطوال . نسى أيام الامتحانات التى قضاها مؤرقاً مسهد الجفن ، نسى ست سنوات طوالاً قضاها فى كلية الطب المصرية بعيدًا عن مرح الشباب وعن عبث الصبا لا ينتهى من امتحان إلا ليستعد لا متحان آخر ، حتى حفرت الامتحانات فى ذهنه خطوطاً عميقة مفزعة لا يزال كابوسها يؤرقه فى الفينة بعد الفينة إلى الآن بعد أن مضى عليها خمسون عامًا طوالا .

لقد انتهى من دراسته منذ عامين والتحق بمصلحة الصحة فطوف فى

أنحاء القطر كله ، ولم يكن يستقر فى بلد ، حتى ينقل بالتلغراف إلى بلد آخر ، فجاب القطر كله من بور سعيد إلى أدفو يكافح الطاعون والتيفوس . يبيت حيناً فى منزل العمدة تؤنسه طوال ليله الحشرات الضارية من بق وبراغيث وغيرهما ، ويبيت حيناً فى النزل الحقير الوحيد فى عاصمة المركز ، وأحياناً فى الخيمة الممزقة دائماً التى تقام له وسط المزارع وتكفل له فيها مصلحة الصحة كل أسباب المشقة والتعب .

وآه من الليالى الممطرة ! ! كان يبتل هو وفراشه وملابسه وكل ما فى خيمته ولا عاصم له من أمره الا أن تقلع السماء . . .وآه من عصف الرياح الهوج وما تتصيده منها خروق خيمته ، وآه من ليل الشتاء الطويل إذا جن ولا أنيس له إلا ذبالة مصباح خافت وإلا نباح الكلاب وعواء الذئاب .

نسى كل هذا حين استقر به المطاف وألقى عصاه فى هذه القرية الصغيرة التى نقل إليها ، وافتتحت مصلحة الصحة مكتباً جديداً فيها . .وكان عليه أن يبحث عن مكان لائق للمكتب ، وآخر للسكن وثالث لعيادته . . .التى سترف إليه فيها عرائس أحلامه . ولم يكن بالقرية فرص للاختيار ، فمبانيها إلا القليل بالطوب الأخضر ، ولكن الحظ حالفه فعثر على ثلاثة منازل متجاورة غير بعيدة من محطة السكة الحديد عرض أصحابها أن ينزلوا له عنها مقابل الأجر المغرى الذى عرضه عليهم . هاهوذا يوم ١٠ فبراير، حيث ستفتتح العيادة ويطلع فيها شمس حياة

جديدة تنثر له فى طرقها الورود والرياحين. لكم ردد فى نفسه بيت شوقى الأثير عليه :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا   وفاز بالحق من لم يأله طلبا

واستيقظ مبكراً صباح ذلك اليوم ولم يكن النوم قد زار جفنيه إلا غراراً ولكنه نهض خفيفاً مستريحاً واسترجع النصيحة الغالية التى أصبحت فيما بعد دستور حياته – والتى ألقاها عليه وعلى سبعة من زملائه أحد أساتذته فى كلية الطب ورؤسائه فى المصلحة . ضحى أول يوم كتبت أسماؤهم فى سجل الموظفين . قال لهم : خلاصة تجاربى مدى ربع قرن قضيت معظم سنواته فى الريف ألقيها عليكم فى كلمات – ليس النجاح على الطبيب عسيراً إذا أراد أن ينجح ، على أن يتبع هذه النصائح الثلاث :

١ – أن يكون طاهر الذيل يجعل من مكتبه وعيادته محرابًا لا يدنس قداسته . وليفعل بعد ذلك ماشاء وشاء له الشيطان خارج منطقة عمله . وما من طبيب زل زلة واحدة فى عمله إلا كتب الله له الفشل الدائم يلاحقه أينما سار .

٢ – وليكن رحيمًا بالناس ، وليعلم أن الله وحده هو الذى سيراقبه . .

٣ – وليكن نظيف اليد لا يمدها إلى حرام أو شبهة حرام . وليعلم أن الله هو مقسم الأرزاق وأنه هو المنتقم الجبار . .

وخرج طبيبنا من عند أستاذه تتردد فى جوانب نفسه هذه النصائح الثلاث وأقسم بينه وبين نفسه بكل محرجة من الإيمان أن يجعلها دستوره وقانونه فى مستقبل حياته . وشاءت عناية الله أن ترعاه فأكدت له هذه المعانى بطريقة عملية ، ووضعت فى طريقة ثلاث حوادث لا يزال يذكرها إلى اليوم .

الأولى مرت به وهو فى أول مأمورية له ببور سعيد التى نقل إليها مع أربعة من إخوانه ، وكانوا يكافحون الطاعون ويحقنون سكان المدينة جميعاً بالطعم الواقى – على النمط الذى اتبع أخيراً فى التطعيم ضد الكوليرا – كان جالسا فى خيمته المقامة فى أحد الميادين يحقن الناس ، ودخلت عليه فتاة لم يكد يراها حتى اهتز كيانه كله ، كانت هيفاء ممشوقة القد ، صارخة الأنوثة ، ساجية الطرف . وسنى المقلتين ، لم تجاوز ربيعها الثامن عشر . دخلت تمايل وتتأود وكانت مغضبة تشكو تصرف رجل البوليس المكلف باستدعاء عائلتها ، وما كادت تنطق – وكان بها لثغة يسيرة – حتى أصابه ذهول وارتج عليه ولم يفتح الله عليه بكلمة واحدة . وأسعفته ذاكرته بقول الشاعر القديم ردده بينه وبين نفسه :

حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وكشفت عن ساعدها لأخذ حقنتها ، وما هو إلا أن مست يده جلدها حتى أصابته رعدة شديدة كرعدة الحمى . وبعين الخبيرة المجربة

أدركت كل ما أصابه ، فعادت إليه فى اليوم التالى مع إحدى قريباتها اللواتى لم يحقن بالأمس .

وكان قد قضى ليلته مع الشيطان يزين له طريق المعصية .وكاد يغلبه على أمره ، لولا نصيحة أستاذه وقرب العهد بالقسم الذى أقسمه . لم يكن يقدر عودتها إلا بعد سبعة أيام . وحين فاجأه حضورها فى اليوم الثانى ، انهارت مقاومته ، فتلطف معها فى الحديث بالقدر الذى يسمح به وجود الكاتب والتومرجى وغيرهما من طلاب الحقن . ولكنها عرفت أنها ربحت هذه الجولة فعادت إليه فى اليوم التالى ، أروع جمالا ، وأبرع دلالا .

وكان قد لم شتات نفسه ، وحزم أمره فردها رداً عنيفًا وانقطعت زيارتها . وتمضى عشرة أيام أو نحو ذلك ، ويقع أحد زملائه فريسة لمرض سرى خطير ويستبد به الداء مستعينًا بكل مضاعفاته ، ويقف الطب حائراً أن يدفع عن أحد أبنائه هذه الكارثة . وتكون نهاية المأساة خللاً فى قواه العقلية بعد ستة شهور من الآلام والعلاج المتصل .

ويتبسط معه صديقه فى أيام مرضه الأولى ، فيذكر له أنها هى بالذات التى أهدته هذا المرض . هى باسمها ، بقوامها ، وأنها اقتنصته من خيمته بنفس الشباك وبنفس الأسلوب ، وأنها ليست إلا إحدى بائعات الهوى ومحترفات الحب . ويحمد الله فقد كان بينه وبين هذا المصير

المؤلم خطوة واحدة . فيجدد العهد ويكرر القسم أن يكون فى عمله دائمًا طاهر الذيل .

٢

ما زلنا فى الصباح المبكر من يوم ١٠ فبراير سنة . . .وما زال طبيبنا الشاب يستعرض ذاكرته ويقرأ فيها نصائح أستاذه . ويذكر الحادثة التى جعلت من عيادته ومن مكتبه محرابًا يدخله دخول الناسك المتبتل ، ويرى الله فى كل ركن من أركانه . . .وها هو ذا قد مضى عليه قرابة عشرين عاماً ولم يلتق أبداً بالشيطان فى هذا المعبد . . . وها هو ذا يذكر الحادثة التى أكدت فى نفسه معنى الرحمة بالناس وكيف تكون ذريعة من ذرائع النجاح والتوفيق .

عرض له فى أصيل اليوم الثانى لا فتتاح عيادته ، أن طرق بابه شيخ قد أشرف على الثمانين . تكاد تنطق تجاعيد وجهه بما لقيه فى رحلته الطويلة فى هذه الحياة من مشقة وحرمان . كان عاريًا إلا من ثوب واحد –جلابية – أظنها رافقته الشطر الأخير من حياته . وكان حافياً إلا من نعل قد اصطلحت عليه فتوق من الرتق والترقيع ، وبرغم رثاثة زيه كانت تضفى عليه لحيته البيضاء المرسلة ، وقامته التى لم تحنها السنون ، وشيخوخته المتقدمة ، كثيراً من الهيبة والوقار. كان الشيخ عمران يمثل

الفلاح المصرى الذى حمل من هموم الدنيا ما لم يحمله ولا يقوى على حمله مخلوق بشرى آخر . طرق باب منزله وسأله أن يصحبه لعيادة ابنه المريض فى قرية أخرى . وخف له طبيبنا يحمل حقيبته وسماعته . بعد أن فهم أن المرض مضى عليه سبعة أيام وأن الكحة والحمى أظهر أعراضه . واصطحب الرجل فى سيارة الأجرة الوحيدة بالقرية . وهو مشغول عن الدنيا وما فيها ، فقد كان يرسم لنفسه الصورة التى سيتخذها فى أول زيارة لأول مريض فى منطقته ، هل سيكون باسماً ضاحك السن . . . وهل سيتبسط فى الحديث ويرد على جميع أسئلة المريض وذويه ردوداً وافية . شارحاً المرض مستعيناً أحياناً بالرسم على إحدى روشتاته كما يفعل الطبيب الشاب الذى زار أحد أقربائه فى قريته فى العام الماضى ؟ أم يعبس ويقطب جبينه ويقتضب كلامه اقتضاباً كما يفعل (الحكيم الرومى الكبير) الذى طالما زار والده إبان مرضه ؟ وهل . . . وهل . . . وهل . . . ولم يدع وصول السيارة للقرية له وقتاً يرد على جميع هذه الأسئلة ولا على بعضها . ونزل ومعه الشيخ على رأس حارة ضيقة اخترقاها سيراً على الأقدام وهى تتلوى بهم ذات الشمال وذات اليمين ، ويشتد إحساسه بالرطوبة والبرد فأشعة الشمس لا تعرف طريقها إلى هذه الحارة – والى معظم حارات القرية المصرية – إلا دقائق معدودات حين ترسل هذه الأشعة عمودية تماماً فى منتصف النهار وحين تستطيع أن تتخلص مما يظلل الحارة من أطراف أعواد القطن والذرة الجافة المكدسة على سطوح

المنازل . ووصلا بيت المريض ، ودلفا إلى الغرفة الوحيدة التى تكون هى والفضاء الذى تقف فيه الجاموسة الهزيلة التى رآها ، جميع أبهاء المنزل ، الذى لم يكن به من أدوات العيش شيء إلا جرة الماء وحصير بالية . . . .رأى المريض ينام على الأرض على فرن مرتفع يملأ دخانه أنحاء الغرفة فيطغى على شعاع الضوء الهزيل الذى ينفذ إليها من كوة ضيقة . . . حرام أن تقاس بكوى السجون . . . وارتقى سطح الفرن بمساعدة أحد الحاضرين ، ورفع الغطاء المهلهل القذر عن مريضه ، وبدأ الفحص . وإذا به يجد شابًّا فى سن الثلاثين تلغط أنفاسه فى زفيره وشهيقه لغطاً عالياً سريعاً وتتحشرج أحياناً حتى تكاد تقف ، وإذا الحالة التهاب رئوى مزدوج والقلب على وشك الامتناع عن عمله . وخاف أن يلقى المريض أجله بين يديه فأسرع بإعطائه بعض المنبهات لقلبه – فقد كانت مركبات السلفا والبنسلين لم يعرفها الطب فى ذلك الحين – وهرول خارجاً والشيخ فى أثره يسأله أليس هناك بصيص من الأمل ؟ ! فيقول له إن قدرة الله فوق كل شيء وإن عليه أن يتجه إلى الله وحده . وتنحدر الدموع تبلل لحية الشيخ وتكاد تطفر أيضاً من عينى الطبيب فقد شاهد الفقر والموت يقفان جنباً إلى جنب فى بيت هذا الشيخ المسكين ، شاهد الفقر كما لم يشاهده أبداً كالحاً ضارياً بادى الأنياب . . .كانت نشأته الأولى فى الريف ، ولا يذكر أنه دخل بيتاً من بيوت قريته ولم يجد فيه أكياس القمح والذرة ، ولم يجد أوانى اللبن ممتلئة به ولم يجد الكثير من الدواجن أو

القليل منها . . .أما ماشاهده فى هذا المنزل من الفقر والحرمان فلم يخطر له أبداً على بال . ورأى الموت أعمى ضرير العصا يترك الشيخ المسن ويترك كل هؤلاء النساء اللواتى كن جالسات بجوار المريض ليخترم شباب عائل الأسرة وكاسبها .

ليت رواد الأوبرج والأريزونا وراكبى الرولز رويس والكاديلاك وحاملات الفراء ولا بسات السوليتير . ليت أعضاء الأندية الليلية الذين تتناول أيديهم ألوف الجنيهات ويتعلق مصيرها – بفردة آس أو فردة تسعة – ليت سكان القصور فى الزمالك وجاردن سيتى يشاهدون ما فى الريف من مسغبة وفقر فربما تغيرت نظرتهم إلى الحياة . واستيقظت ضمائرهم .

وفاجأه الشيخ عمران بجنبه لا يعلم إلا الله من أين أتى به ، فرفضه وثارت فى الرجل كبرياء وأنفة ، وقال : أنا رجل مستور والحمد لله فلا تجرح كرامتى وكفانى فجيعتى فى ابنى الوحيد . وكرر الطبيب رفضه ، ثم رفض أيضاً أن يدفع الشيخ أجرة السيارة التى انطلقت به عائدة وكانت ثلاثين قرشا كاملة .

وانطوى الطبيب على نفسه فى السيارة جريح العزة مهيض الجناح ، فها هوذا الموت قد سبقه إلى أول مريض له ، وحرمه أن يقول عنه الناس إن يده خضراء وأن فى قدمه الخير وفى طالعه السعد . وستتحدث القرية كلها عنه فى هذا المساء ، وأنه زار المريض وبعد دقائق من زيارته

توفى . .ولكن شيئاً من الطمأنينة والسكينة ساد نفسه القلقة لأنه كان رحيماً بهذه الأسرة البائسة : فلم يتقاض أتعابه بل تبرع أيضًا بأجرة السيارة ، وكان مرتبه فى ذلك الحين خمسة عشر جنيهًا لا تكاد تكفى أجور المنزل والعيادة والخدم . .ولكن هل يعنى ذلك أن الرحمة بالفقراء ستكون عبئاً آخر يضاف إلى أعبائه فيدفع ثلاثين قرشاً فى كل زيارة . وأفاق من تأملاته على أصوات كثيرة تلاحقه وتناديه . ولم تكن السيارة قد اجتازت القنطرة الصغيرة التى توصل للطريق الزراعى ، وعاد معهم إلى منزل الحاج سيد . . .سيد العزبة وكبير رجالاتها واجتاز البهو الفسيح الذى ازدحم بالناس ليرى طفلا لم يتجاوز الرابعة به جرح رضى بمقدم الرأس لم يتجاوز الثلاثة سنتيمترات طولا – وقع من على كرسى لا يزيد طوله عن نصف متر – وكان الحاج سيد مبسوط الرزق ميسر النعمة ، وعلى الرأس من عائلة كبيرة العدد . ولكنه لم يرزق غير ابن واحد توفى فى ريعان شبابه بعد زواجه ببضعة أيام ، وأعقب هذا الطفل الذى أصبح معقد رجاء الأسرة وقرة عينها .

أسعف الطفل وضمد جرحه ، وقال للحاج سيد إنه يحتاج أن يخيط الجرح فقال له إنه بين يديك افعل به ما تشاء وأنا وعائلتى وكل ما أملك رهن إشارتك . فهون عليه الطبيب الأمر وقال إن الإصابة بسيطة جدًّا ولا تستدعى كل هذا القلق ، وعاد بالطفل بين ذراعى جده . وحملت السيارة معهم بداخلها وخارجها كل ما يمكن حمله من الأقارب

والأصدقاء ، ووصل عيادته وقد اشتد إيمانه بالله الذى عجل جزاءه وضاعف أجره .

ووضع الطفل على ترابيزة العمليات الجديدة وعقم أدواته وغسل يديه وقد ملأه الفرح وازدهاه البشر . ووضع مسبره يتحسس العظام زيادة فى الحيطة ، وخطر بباله كل شيء إلا أن يجد عظم الجمجمة مكسوراً . وتصبب العرق البارد على جبينه وأسقط فى يده (وعادت أغانى العرس رجع نواح) . ربط الجرح مرة ثانية وجلس يفكر فى ماذا سيصنع ؟ الحالة تحتاج لعملية تربنة فهذا العظم المنخسف يضغط على المخ ولا بد من رفعه وإلا تعرض المريض لمضاعفات كثيرة منها الشلل ومنها الوفاة .

ولم تكن الفرص قد أتيحت له ليحذق هذه العملية . صحيح أنه ساعد فى غرفة عمليات القصر العينى بضع مرات، وشاهدها عدة مرات . ولكن أن يضطلع بها وحده ، وصالة العيادة مزدحمة بهذا العدد من الملهوفين ، ولحفيد الحاج سيد . . . فهذا ضرب من الجنون لم يخطر على بال . فكر أن يتخلص من الحالة وتلمس الأعذار التى يواجه بها الحاج سيد . . . ووجدها خيبة مرة وفشلا ذريعًا يستفتح به عمله أن يجهر بجهله ويصارح به الناس . وأخيراً فكر أن يدعو أحد زملائه من مستشفى القصر العينى يعمل معه العملية . وخرج إلى مكتبه فشرح للحاج سيد ومن معه الحالة وأنها تحتاج إلى عملية كبيرة لا بد من دعوة طبيب آخر يساعده

فيها . وكان الليل قد أقبل ، فقال لهم ولا بد أن تكون فى ضوء النهار . وسلم الرجل أمره لله ، وكرر أنه يضع ثروته كلها بين يدى الدكتور على أن يشفى له الولد . واستقل سيارة قامت به إلى القاهرة وكانت تبعد عن قريته بحوالى ثمانية عشر كيلو متراً ووصل قصر العينى ، واتفق مع أحد زملائه أن يوافيه فى الساعة الثامنة من صباح الغد . وذهب إلى متجر لبيع الآت الجراحة فاشترى كل ما يلزم للعملية من آلات ، وعاد إلى قريته هادئاً راضى النفس ليقرأ كل ماحوته كتبه عن عملية التربنة .

واستيقظ مبكراً وذهب إلى عيادته فى منتصف الساعة السابعة حيث عقم آلاته وأعد كل ما يلزم للعملية . وكانت قرية المريض بأكملها قد زحمت العيادة والشارع الذى تقع فيه ودقت الساعة الثامنة ولم يحضر زميله ، وبدأ يغسل يديه وإذا بساعى التلغراف يحضر برسالة فضها التومرجى وقرأ فيها أن زميله يعتذر لمرض فاجأه . . . ومادت الأرض تحت قدميه وغشيت ناظريه ظلمة شديدة ، فجلس على أقرب كرسى صادفه مشتت الفكر معطل الذهن .

ولم تطل حيرته فقد حزم أمره أن يعمل العملية وحده وليكن ما يريده الله ، وقام إلى حوض المياه بقدم ثابتة فأتم غسل يديه . وبدأ التومرجى يعطى الطفل البنج ، ولم يكن هو الآخر متمرناً على إعطائه ، فانتظر إلى جانبه حتى نام الطفل . ثم بدأ العملية : شق الجلد شقًّا كشف عن مساحة كبيرة من العظام وتحسس الجزء المنخسف منه فإذا به يجده

منفصلا تقريباً لم يعوزه إلى أكثر من أن يرفعه بجفت العظام فيخلص بين يديه . ولو أن الدنيا بما فيها وضعت بين يديه مقابل هذا الجزء الصغير من العظام لرجحها . وأكمل عمليته فى سهولة ويسر وخرج من الغرفة خروج الظافر المنتصر لا تكاد الدنيا تسعه . وشرب فنجاناً من القهوة شأن كبار الجراحين ، وفكر فى سيجارة ولم يكن قد عرف التدخين . وطمأن الحاج سيد وعشيرته وانصرف إلى نفسه ماذا كان يصنع لو أنه وجد أحد الأوعية الدموية النائمة فى العظام مقطوعاً والتى يؤدى نزيفها إلى وفاة المريض على الترابيزة ولا حيلة للجراح فيها ؟

. . . طافت بباله قصة جراح العيون الكبير بفينا الذى ذهب يستأصل العين المريضة لأحد مرضاه .وبعد أن استأصلها اتضح له أنه استأصل السليمة وكانت اليسرى ، فأسرع إلى غرفته بالمستشفى ووضع فوهة مسدسه على عينه اليسرى وأطلق النار فمات لساعته . . .فكر فى القصة طويلا ولكنه لم يجد لضميره كل هذه اليقظة ولم يجد فى خلقه كل هذه القوة ولم يجد معه أيضاً مسدساً .

وحمد الله أن لطف به ولم يركبه هذا المركب الخشن .

وسادته الطمأنينة بضع ساعات ثم بدأت الهواجس تنوشه .ماذا لو تعرض مريضه لإحدى مضاعفات العملية كالالتهاب السحائى أو خراج المخ أو غيرهما ؟ ؟لم يستطع الإجابة ولكنه أسرع إلى مريضه يقيس حرارته بنفسه ويحنو عليه حنو المرضع على الفطيم – لقد تعلقت آماله وارتبط

مستقبله بهذا الطفل الصغير – ومضى يومان قضى معظمهما إلى جوار سريره يأخذ الحرارة كل ساعتين والقلق يكاد يمزق أعصابه . وأقبلت الليلة السوداء التى رأى الترمومتر فيها يعلو إلى ٤٠ْ فانهارت مقاومته وخارت قواه ، وود لو أن الأرض زلزلت زلزالها وأن السماء تساقطت عليه كسفاً . وتوجه إلى الله متوسلا بملائكته وبرسله وبكتبه وبأوليائه ، وبحث عن حسنة يتقدم بها فلم يجد إلا المائة والثلاثين قرشاً التى أعفى منها الشيخ عمران فرددها صلاة ودعاء . ونذر لله إن شفى الطفل أن يكون كل ما يتقاضاه من أجر عنه للفقراء والمساكين . وأحس أنه بذلك قد صنع شيئاً فى سبيل شفائه . وسكنت نفسه قليلا ، فأكمل علاج المريض حقناً وعقاقير . ومضت أربعة أيام أخرى أسود من خافية الغراب برغم أن الحرارة بدأت تتحسن فيها ، وكان اليوم السابع ووجد الجرح قد التأم بالقصد الأول ، ورفع الغرز.

وهدأت العاصفة ونام ليلتها ملء جفنيه واستقبل مواكب النصر : عشرين جنيهاً كاملة أبى أن يأخذ غيرها . وصيتاً قد ذاع . وشأناً قد نبه واسماً قد علا . وعيادة تعج بوفود المرضى وهكذا . .

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

إنها بركة المائة والثلاثين قرشاً التى أعفى منها الشيخ عمران . . وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

٣

٣٠ يونيه . . .

كان يوماً قائظاً شديد الحر حين أقبلوا يتصببون عرقاً . وأدركوا القطار القائم إلى بور سعيد . وكان كسامر ليلى شديد الزحام . وأصابهم عنت شديد ليجدوا لأقدامهم موطئاً ولحقائبهم مكاناً خارج الصالونات .وعجبوا حين وجدوا بالعربة أربعة صالونات خالية ومكتوب على أبوابها بالطباشير «محجوز» . وتطور العجب إلى غضب ، وحين اشتدت وقدة الحر تطور الغضب إلى ثورة على هذه الأوضاع الجائرة التى تترك كل هذه الأمكنة خالية والناس وقوف أمامها وقد يكون الديوان كله محجوزاً لشخص واحد ، وقد يكون هذا الشخص مسافراً لعمل يقل أهمية عن عملهم ، فقد كانوا ذاهبين إلى بور سعيد لمكافحة الطاعون الذى ظهرت منه بضع حالات فى المدينة ،وأخيراً قد لا يحضر هذا الشخص .

سيقوم القطار بعد دقيقة واحدة ولم يحضر أحد . وجد طبيبنا الشاب أن أعصابه لن تتحمل أن يسير بهم القطار على هذا الوضع . . .مقاعد لا تجد من يجلس عليها ، وأناس يكادون أن يختنقوا من شدة الزحام وشدة الحر . وفى هذه اللحظة أقبل فراش القطار يفتح الصالون المواجه لهم ويستقبل من الحمالين بضع حقائب ، فاندفع بغير تردد ووراءه زملاؤه

الثلاثة واحتلوا مقاعدهم ، وترك الفراش الحقائب وأسرع إلى الباب يمنع عنه سيل المسافرين الذى اتجه نحو الصالون واستطاع أن يغلق الباب ، وقامت مشادة عنيفة بينه وبين هؤلاء الأربعة الجالسين ، سرعان ما انقلبت إلى توسل ورجاء منه أن يخلوا الصالون ، فستقع على رأسه ورأس أولاده مغبة ما يصنعون . وأنهى ما بينهم وصول رجل طويل القامة أنيق الثياب عليه مهابة ووقار قد جلل الشيب فوديه يبدو فى منتصف العقد السادس من عمره . صرف الفراش وسلم وجلس .

وبعد لحظة تحرك القطار ، وبدأ هو الحديث ، فعرفوا منه أنه من رجال السلك السياسى وأنه سيأخذ الباخرة من بور سعيد إلى مقر عمله الجديد ، وكان محدثاً بارعاً ، فاتن الأسلوب ، واسع الاطلاع ، ما طرق موضوعاً إلا أرهف فيه بالقول وأعجز . وتضاءل طبيبنا وصغر وتبخر ما كان برأسه من غرور ، فقد كان يعتقد بعد أن درس الطب ، واستوعب كل هذه المجلدات الضخمة . وجاز بها أدق الامتحانات ، عاماً بعد عام . وكان يقرأ شيئاً من الأدب ، ويستظهر جملة صالحة من الشعر . كان يعتقد أن هذه هى الثقافة كلها . فإذا به يجد نفسه قزماً أمام هذا العملاق ، وإذا هو قد عرف شيئاً وغابت عنه أشياء .

ألم الرجل بأشتات من الحديث ، فى مختلف العلوم والفنون . وكان من جملة ما قاله لهم :

أخرنى عن موعد سفرى ، وكان فى الشهر الماضى ، حادث وقع لناظر عزبته فى مديرية الشرقية ، اذ أودى بحياته طلق نارى ، وضبط القاتل متلبساً بجريمته ، ولكن المحرض وهو جار لنا ، واسع الثراء . ولكنه واسع الذمة ، طيع الضمير – وقد كفلت له هذه المؤهلات ، اسماً لامعاً فى عالم السياسة – ائتمر مع حكام الإقليم جميعاً ، ليضيع دم القتيل ، فضاع ، وقيدت القضية ضد مجهول . لوح لهم بذهب المعز وسيفه ، فبعضهم خلبه بريق الذهب ، وبعضهم راعته حدة السيف ، وكانوا جميعاً ، من الخفير ، إلى شيخ الخفر ، إلى العمدة ، إلى ملاحظ النقطة ، إلى المأمور ، إلى . . . ، ومن حلاق الصحة ، إلى طبيب النقطة ، إلى . . ، شركاء فى الإثم . ولكن اشتراك الطبيب وحده هو الذى حز فى نفسى . كيف جاز لملاك الرحمة ، ورسول الإنسانية ، أن يتخلى حز مثله العليا ؟ وكيف يجوز للناس بعد ذلك أن يأتمنوه على أعراضهم وأسرارهم وأرواحهم ؟ ثم استرسل يقول : ليست الرشوة غريبة عن مصر . إنها التراث القذر الذى ورثناه عن عهود الاحتلال المختلفة . وقد شهدت طفولتى عهداً من الفوضى وسوء الإدارة ، كان الظلم والاستعباد هما كل مواد الدستور الذى تحكم به البلد ، ولم يكن للناس عاصم من شرهما الا الرشوة ، وكان الملتزمون الاتراك يعيثون فى الأرض فساداً ، لا يكفكف من طغيانهم ، أو يحد من سلطانهم ، إلا الرشوة .

وقد أتيح لى منذ حين أن أطلع على بعض المحفوظات فى قصر

عابدين ، فهالني أن سلطان تركيا ، وخليفة أمير المؤمنين ، وخاقان البرين والبحرين ، كان يقبل الرشوة ، وقد فطن لهذا الخديو إسماعيل ، طيب الله ثراه ، فسيطر على نظام الحكم هناك . وعين له سفيراً أرمنيًّا فى الآستانة ، اسمه إبراهام بك ، كل مهمته توصيل الرشاوى للسلطان ، والصدر الأعظم . وغيره من الوزراء وذوى النفوذ ، حتى قهوجى باشا ، أعنى أنه فتح سوقاً تباع فيها الذمم . وتشترى الضمائر .

أراد الخديو أن يغير نظام وراثة العرش ، حتى تكون لا بنه من بعده ، وكانت لأرشد الموجودين من نسل محمد على ، فأبرق إلى إبراهام واتصل هذا بدوره بالصدر الأعظم ، واتفق معه على أن يدفع له ٥٠ ألف جنيه ، وللسلطان ١٠٠ ألف جنيه . ولغيرهما كل وما يتناسب مع قيمته . ورفعت الجزية أيضاً على مصر من ٣٥٠ ألف جنيه إلى ٧٥٠ ألف جنيه . .وأراد أن يغير اسم والى مصر إلى عزيز مصر ، فأبرق إلى إبراهام ، واتفق إبراهام على المبالغ التى ستدفع ، وقامت دون التنفيذ مشكلة . أن السلطان اسمه عبد العزيز . وتم الاتفاق على أن يكون الاسم « خديو » وهى كلمة فارسية معناها ربانى .

وقوى نفوذ إبراهام حتى أنه استطاع بناء على رغبة الخديو . أن يتحكم فى تعيين الوزراء فى تركيا ، فاستبعد اسم وزير خارجية كان يكرهه الخديو ، ودفع الثمن للصدر الأعظم .

وكان السلطان يحب الكلاب والطيور الأليفة والدجاج ذوات

الرؤوس السود والريش الأبيض ، وقد اطلعت على قائمة مرسلة من إبراهام للخديو تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه ، ثمن كلاب وطيور استوردها من باريس .

وهكذا كان الحال فى الدولة الحاكمة التى نتبعها ، فهل تعجبون إذا فسد كل أمر من أمورها ، ورخصت الذمم «ونامت الضمائر» ؟؟

فإذا بقى لنا من هذه التركة الملطخة بالأوحال قلة ، فى موظفينا ، لم تستيقظ ضمائرهم بعد ، فإنا نحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ووصل القطار بورسعيد وافترقوا ، ولكن شخصية هذا الرجل ، وروعة حديثه ، لم تفارق طبيبنا الشاب إلى اليوم .

٧يولية . .؟

العمل يسير سيراً رتيباً هادئاً ، ولا حديث للناس إلا ذلك الموظف الصغير فى إحدى المصالح الحكومية الذى استغل قرابته لأحد كبار رجال الدولة ، وتحت سمع رؤسائه وبصرهم ، فساوم كل ذى عمل حتى قدروا له أكثر من ألف جنيه فى مدى شهور ثلاثة .

١٠ يولية . .؟

ظهرت دلائل النعمة الطارئة على هذا الموظف الصغير ، فاشترى سيارة جديدة يختال بها فى شوارع المدينة .

١٣ يولية . .؟

ذهب طبيبنا مع مفتش الصحة ليشهد تشريح جثة رجل ، قتلته

سيارة وهو جالس داخل متجره ، واتضح أنها سيارة حضرة الموظف الثرى . وقدقبض عليه . . . إنها العدالة السماوية تمهل قليلا ، ولكنها لا تهمل .

١٠ سبتمبر . . ؟

استعان هذا الموظف باثنين من كبار المحامين ، ودفع لهما كل ما يملك ولكن المحكمة حكمت عليه اليوم بستة شهور ، وهكذا انطفأت هذه الفقاعة وشيعت باللعنة والشماتة .

١٥ سبتمبر . . . ؟

طبيبنا الآن بشبين الكوم ، فى إحدى مأموريات مكافحة الأوبئة ، إنه يقضى شطراً من الليل فى صيدلية أحد زملائه مع بعض الموظفين ، وقد استلفت نظره واحد منهم . يلبس القفاز فى يديه ليلا ونهاراً . علم من صديقه الصيدلى ، أن عنده أكزيما مضت عليها ست سنوات ، فشل فيها الطب . وأخبره أن هذا الموظف ذكر له أن سببها . أنه أخذ رشوة من صاحب حاجة فى الصباح ، وشعر فى المساء بنار تأكل يديه ، تاب وأناب ورجع إلى الله ، ولكن النار فى يديه لم تنطفئ .

شاه وجه الرشوة وقبح ، ولعنة الله على تجار الذمم المرتشين .

* * *

٤

٢ أبريل سنة ١٩٣١

وطأت له الحياة أكنافها. وخفضت له جناحها. وأقبلت عليه الدنيا إقبالا سريعاً. وها هو ذا يراجع دخله بعد أن مضى عليه فى عيادته الجديدة عشرون يوماً فقط، فتقابله ثمانون جنيهاً كاملة فى زمن كان الجنيه فى عنفوان شبابه — لم تدركه الشيخوخة التى أدركته فى هذه الأيام — كان قادراً أن يذهب بصاحبه إلى المطعم والمشرب والمتجر، يقضى له حاجات كثيرة، ثم يبقى له من نفسه فضلا يؤنس جيبه. وجدها ثمانين جنيهاً سدد منها ما عليه من تكاليف، ومضى بالبقية الباقية إلى القاهرة وافتتح لنفسه حساباً فى بنك مصر، وشهد صراف البنك وعلى وجهه أمارات الضجر، فقد كان معظمها نقوداً فضية استغرق عدها وفرزها والعثور على بضع قطع زائفة فيها بضع دقائق. فى حين أن الذى تقدمه إلى نفس الصراف أودع بضعة ألوف من الجنيهات عدها فى ثوان، إذ كانت كلها أوراقاً من فئة المائة. فتعلم أن يكون ما يودعه أوراقاً مرتبة حتى لا يبعث الضيق والضجر فى نفس هذا الصرف الأنيق.

وعاد ومعه دفتر شيكات، وقد أصبح للمرة الأولى فى حياته من أصحاب رؤوس الأموال ومن عملاء البنوك.

كانت حياته الجديدة فى هذه القرية لا تعدو أن تكون عملا متصلا

يبدأ فى الصباح الباكرين مكتبه الحكومى وعيادته المزدحمة دائماً بزبائنه القدامى والجدد ، لا يكاد يفرغ منهم قبل الساعة الثالثة ، فيأوى إلى منزله يطعم ويستريح حتى إذا أقبل المساء أسرع إلى هذه الطائفة من الأخوان الذين أحبهم من كل قلبه . كانوا برغم اختلاف أسنانهم وتباين أمزجتهم وثقافتهم وبيئاتهم منسجمين انسجاماً جميلا ، أو قل كانوا كأفراد الفرقة الموسيقية الواحدة لكل عازف صوته فى اللحن الذى يأخذ قوته وجماله من مجموع هذه الأصوات المختلفة .

وكانت هذه الجماعة تتألف من ضابط البوليس ووكيل البوستة ومعاون المحطة ووكيل التلغراف وأحد الموظفين فى الشركة الأجنبيّة التى تحتل القرية ، وأخيراً من طبيبنا الشاب . وكانوا يجتمعون فى المحطة حتى إذا جن الليل انتقلوا إلى الخواجة بنايوتى ، وهو مندوب الأمة اليونانية فى هذه القرية ، يدير محلاً صغيراً ونظيفاً للبقالة ، وقهوة يؤمها وجوه القرية وحكامها ، وغرفة أو اثنتين بهما أسرة يأوى إليها الغرباء فيأكلون مما يأكل هو وعائلته ، ولم يكن يحدث هذا إلا نادراً ، أى أنه كان مسئولاً وحده أن يجعل من القرية مدينة بها بعض أسباب المدنية والعمران .

كانوا يسمرون إلى نحو الساعة العاشرة ، ثم ينفض سامرهم بعد أن يكونوا قد بحثوا مشاكل السياسة الداخلية ، وكان حضرة وكيل البوستة الحجة الثبت فيها ، ومشاكلها الخارجية وكان وكيل التلغراف هو مرجعها وصاحب خبرها اليقين ، وينتقلون من السياسة إلى مختلف المواضيع التافهة

من أسعار المأكولات إلى خيانات الخدم . ولا بأس من أن يتردد على مجالسهم أخبار فتيات هذه الشركة الأجنبية ومغامراتهن . وتتكرر فى كل مساء هذه الأحاديث المعادة حتى بدأ السأم يدب فى نفس طبيبنا ، لولا أن هبط عليهم ذات مساء عبد الإله أفندى الموظف الجديد الذى نقل اليوم إلى إحدى الوظائف الصغيرة ، فبدد السأم وأشاع فى جوهم كثيراً من المرح والسرور . كان رجلا فارع الطول عريض المنكبين فى منتصف العقد السادس من عمره ، تشوب وجهه حمرة قاتمة ، ويعلوه طربوش طويل يغطى الجزء الأكبر من جبهته . وكان قد طوف بمختلف بلاد القطر أربعين عاماً طوالاً ، ثم انتهى به المطاف إلى هذه القرية التى لا تبعد عن مسقط رأسه إلا بضعة كيلو مترات . وقد اجتمع له فى هذه المدة الطويلة ذخيرة من الأحاديث والروايات ، زادتها موهبته فى الخلق والابتكار وقدرته على المبالغة والتهويل . لا يذكر أمامه شأن من شئون الحياة إلا وروى قصة طويلة ومثيرة وقعت له أورآها بعينى رأسه ، وكان يتصيد هذه المناسبات تصيداً . ذكر أحد الإخوان أنه شعر بشيء من سوء الهضم عقب أكلة سمك أسرف فيها ، وقبل أن يرد الطبيب قال عبد الإله أفندى : وهل تسمون هذا السمك الذى تأكلونه فى هذه الأيام سمكاً ، وأين هو من سمك الأيام الغابرات حيث كانت السمكة الواحدة تزن قنطاراً وكان المرء يأكل منه ما شاءت له شهيته ، فلا يشعر بهذه الأعراض التى يسببها سمك هذه الأيام . ثم يقول ما زلت أذكر أن والدتى رغبت إلىّ

والدى أن تأكل سمكاً ، وكنت إذ ذاك طفلا فى عامى السابع ، فخف إلى بغلته وأردفنى وراءه وأخذ معه غرارة فارغة من غرائر القمح ، وذهبنا إلى حقل لنا قريب وترجلنا وخلع والدى حذاءه وشمر ملابسه ونزل فى ترعة فى وسط حقلنا ووضع فوهة الغرارة على فوهة الماسورة التى تغذى الترعة . وانساب الماء إلى داخلها . ولم يمض عليه إلا حوالى ربع ساعة ، حتى امتلأت الغرارة عن آخرها بأنواع مختلفة من الأسماك حتى أعياه أن يرفع الغرارة وحده مع أنه كان فى قوة هرقل . فنادى أحد الفلاحين وتعاونا فى إخراج الغرارة ، كان السمك حيًّا يقفز من الغرارة ولم يجد ما يربطها بها . فمد يده داخلها وأخرج ثعباناً طويلا من السّمك ، وزم فوهة الغرارة وربطها بهذا الثعبان . . . ولم يستطيعوا أن يحتملوا أكثر من هذا فانفجروا ضاحكين وقطعوا القصة التى يجوز أن يكون لها بقية من خياله الرائع الذى لا يخذله أبداً . وعذرهم هو على هذا الضحك ، فقد جاءوا الأيام بعد أن شابت وشاخت وطارت النعمة والبركة ، وهل رأوا ما رآه فى شبابه وتقلبوا فيما تقلب فيه من خير ونعيم ؟لقد شهد بعينى رأسه والدة أحد أثرياء الصعيد تسند باب غرفتها بقطعة من الماس فى حجم البطيخة ، شهد فى نفس المنزل سجادة بلغ من طول وبرتها أن الخادم النوبى الصغير . وهو يحمل صينية القهوة تعثر فوقع فاختفى فيها ، فأخذ الحاضرون يبحثون عنه ولم يعثروا عليه إلا بعد نصف ساعة . أما الصينية والفناجين فلم يعثر عليها لليوم . وهل شهدوا كما شهد فى مزرعة رجل آخر

شجرة الجميز التى تظلل أربعين فدانا . وهبها صاحبها بوراً لهذه الشجرة العزيزة عليه وعلى عائلته . وهل شهدوا وابوراً إرتوازيًّا أقامه صديق له لشرب الفراخ فقط فى عزبته ، ولم تكن مياهه تكفيها مع إدارته ليلاً ونهاراً . فكان يضطر لإدارة عشر سواق أخرى حتى ترتوى الفراخ ، والطريف أن القصة تنتهى بأن هذا العدد الكبير من الفراخ لم يكن يكفى مطبخ العائلة .

وكانت قصص عم عبد الإله أفندى تنتهى دائماً بآهة طويلة يقول بعدها :

ذهب الصبا وتولت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

١١ أبريل . . .

وصل طبيبنا إلى قهوة بنايوتى متأخراً ، فإذا عبد الآله افندى ثائر يرغى ويزيد . وذلك أن حضرة معاون المحطة انتهز يوم عطلته الأسبوعية وذهب إلى قرية عبد الآله أفندى واستفسر من العمدة عن ممتلكاته فاتضح أن والده توفى عن فدان واحد وقيراطين يرثها أربعة ذكور وثلاث إناث . وكان عبد الإله أفندى منذ حضوره دائم الشكوى مما يلاقيه من عنت فى إدارة أطيانه من لؤم المستأجرين ، ومن هذه الآفات التى تصيب المحاصيل ومن رداءة أثمانها من إهمال وزارة الأشغال فى تطهير الترع وإهمال وزارة الزراعة فى استنبات البذور الصالحة ووقاية

المزروعات من آفاتها . وكانت هذه الشكوى حديثاً مكرراً يعيده كل مساء ، ولما بدأه هذا المساء أخبره المعاون ، أنه كان صباح اليوم ببلدته وأنه رأى أطيان العائلة وعلم أن مساحتها كلها فدان واحد وقيراطان . فثار ثورته وأفلت منه زمام أعصابه بضع دقائق ، ثم استرده ليروى لهم قصته الأخيرة : كان يعمل بالإسماعيلية فى عام ١٩١٨ بعد أن وضعت الحرب الأولى أوزارها . وكان صديقاً حميماً لقائد الجيوش البريطانية هناك ولم يكن هذا القائد يصبر على فراق عبد الإله أفندى ليلة واحدة ، وكان الويسكى صديقهما الثالث . يعبان منه حتى منتصف الليل ثم يفترقان كل إلى منزله ، وحدث ذات مساء أن حضر أحد الجنود الإنجليز مهرولا ينقل إلى القائد أن بارجة ألمانية مرت بالقنال ، ولم تحى العلم البريطانى المرفوع على بارجة إنجليزية . فأمر القائد بإطلاق المدافع عليها ، وجرى الجندى لينفذ الأمر . وجرى عبد الإله أفندى وراء الجندى فأمسكه وعاد به إلى القائد ، وقال : له حرام عليك أن تشعل نار حرب ثانية تذهب بالحرث والنسل . فقال له : لقد أهين العلم البريطانى ولا سبيل لغسل هذه الإهانة إلا بالمدفع . وأخذ يجادله ويحاجه والقائد مصمم لا يلين ، وأخيراً أقسم له عبد الإله أفندى أن يكون هذا المساء آخر العهد بصداقتهما إن صمم على رأيه . وهنا لان القائد وصرف الجندى ، وهكذا أنقذ عبد الإله أفندى العالم من الدمار المحقق . وحين يقول له خبيث من الإخوان إنه لا يتقن اللغة الإنجليزية يرد عليه بأن المترجم كان دائماً معهما . ويقول

له آخر: ولكنا لم نرك تشرب الويسكى أبداً ، فيرد عليه أن باستطاعته أن يشرب زجاجة كاملة ، وكأنه يشرب ماء قراحاً . وينتهى بينهما التحدى بأن يشرب عبد الإله أفندى الزجاجة فى أقل من ساعة على أن يدفع ثمنها الآخر . ويحمل بنايوتى زجاجة ديوارز وإلى جانبها كوباً وبعض المأكولات وبعض زجاجات صودا ، ويرفض عبد الإله أفندى هذه المأكولات ، فليس هو ممن يأكلون المزة أو يمزجون شرابهم بالصودا أو الماء ، ويأخذ الزجاجة والكوب ليملأها عن آخرها ويشربها مرة واحدة . ثم يعيد ملأها وشربها ، حتى تنتهى الزجاجة فى دقائق وكأنما أصاب الطبيب وإخوانه ذهول ، ولم يفكر أحدهم فى هذا الذى ينتحر أمامهم . فقد أفهمهم أنه شرب الزجاجة وحده مئات المرات وصدقوه ، ولكنهم لما رأوا الطريقة التى شرب بها أمامهم أدركوا أنه كذبهم وكذب على نفسه ، ولم تمض دقائق حتى ترنح على كرسيه وسقط على الأرض . وبدأ الطبيب يثوب إلى رشده ويدرك مسئولية ما حدث أمامه . وضع يده فى حلق عبد الإله أفندى حتى تقيأ ، وبرغم القىء فقد ذهب فى غيبوبة شديدة ، فنقلوه إلى العيادة وغسل له معدته ، وعمل له كل الإسعافات الطبية الممكنة ، ولكنه لم ينتبه . ونقلوه إلى منزله ولفقوا قصة ذكروها لزوجته وأولاده – اتضح لهم كذبها بعد أيام – وأخذ الطبيب يتردد عليه صباحاً ومساء ، حتى تحسنت حالته قليلاً ولكنه أصيب بالفالج بعد أيام . وهكذا كانت الخاتمة المؤلمة لقصة هذا الرجل الذى كان يصنع

القصص بحذق ومهارة ، ولكنه صنع لنفسه مأساة أليمة ، رحمه الله عدد ما أدخل على نفوس إخوانه من بهجة وسرور .

٥

وإذا العناية لاحظتك عيونها فالمخاوف كلهن أمان

١٠ أغسطس . . ؟

اشترى سيارته الجديدة ، وراجع رصيده فى البنك ، ثم راجع رصيده من محبة الناس وتعلقهم به ، فراعته الأرقام العالية التى لم تخطر له أبداً على بال أن يصل إليها فى هذه الشهور الستة التى فتح فيها عيادته . فساءل نفسه : ما سر هذا النجاح السريع ؟! إن المدة التى قضاها فى دراسة الطب ، والتى قضاها بالمستشفى لا تكفى أبداً أن تصنع منه طبيباً عبقريًّا يستحق كل هذا النجاح . وإنه ليكون باغياً على نفسه عادياً عليها إذا ربط نجاحه بعلمه . وأنه ليقرأ قصة سان ميشيل الشهيرة التى كتبها طبيب ناشئ عن جزيرة كابرى أجمل جزر إيطاليا حيث تتجلى الطبيعة وتبدو لوحة رائعة لفنان كبير ، حشد فيها من معالم الجمال والإبداع ما يشهد بمقدرة الخالق وما يسجد أمامه كل ذواق للفن . وإنه ليقرأ هذه القصة حتى وجد فى أحد فصولها رداً للسؤال الذى طالما تردد فى جوانب

نفسه . قرأ السطور التالية : «كان مفروضاً عليّ أن ملم بكل فرع من فروع الطب ، من الجراحة إلى أمراض النساء والولادة ، إلى الأمراض الباطنية ، إلى أمراض العيون والحنجرة والأنف والأذن . فقد كنت الطبيب الوحيد فى المنطقة التى ذاع فيها صيتى وطار ذكرى بدون مناسبة . وحين كنت أستدعى لحالة ولادة ، كنت أجهز أدواتى وآلاتى وأنا أدعو للطفل وأمه أن يكتب الله لهما السلامة . ولكن حظى كان خارقاً للعادة ، كانت أصابعى تحمل الشفاء لكل مريض تلمسه ، مع أن دراساتى وتمريناتى لم تكن تبعث كثيراً من الأمل . تذكرت أنى قرأت أن نابليون حين كانت تعرض عليه كشوف الترقية لكبار ضباطه ، وأمام كل منهم مؤهلاته وطرف من تاريخ حياته ، كثيراً ما كان يؤشر بخط يده أمام من يريد ترقيته : هل هو سعيد الحظ ؟! وما مدى توفيقه فى حياته الخاصة ؟! . فأدركت أنه الحظ ولا شىء غير الحظ الذى يملأ نفوس مرضاى بهذه الثقة فى فنى ، وإنى قد أوتيت هذه الموهبة الساحرة التى لا تنال بكثرة القراءة ولا بكثرة التمرين ولكنها تولد فى شخص ، ويحرم منها آخر لغير سبب . فحمدت الله واتجهت إليه ، فقد أوشك التردد أن يسيطر على نفسى» .

ما أقرب ما بين طبيبنا الشاب فى قريته الموحشة القذرة ، وبين طبيب سان ميشيل فى جزيرة كابرى الرائعة الجمال . لقد كان ما يتجاوب فى نفسيهما صورة واحدة . وأدرك هو أيضاً ما أدركه صاحب سان ميشيل

إن الحظ يلعب فى حياته الدور الأول . ولم ترض كبرياءه كلمة الحظ ، فقال : إنه التوفيق ، بل هو عناية الله التى ترعاه . واستراح إلى ذلك ، وصمم وأقسم بينه وبين نفسه أن يظل ما بينه وبين الله عامراً ، حتى لا يحرم من عنايته ، وكرر هذا القسم بعد هذه الحادثة التى عرضت له منذ أيام معدودات .

كان واقفاً إلى جانب سيارته بباب عيادته أصيل يوم أجمع فيه أمره للذهاب للقاهرة لبعض شأنه ، إذ أقبلت سيارة تحمل مريضة ومعها بضعة أشخاص يعرف من بينهم الحاج سيد الجزار الذى يجاور محله عيادته . وكانت المريضة بدينة مسرفة فى البدانة ، تعاون على حملها أربعة رجال أشداء إلى ترابيزة الكشف . وعلم من الحاج سيد أن قصة مرضها بدأت منذ خمسة عشر يوماً بحمى غير منتظمة ، حملت من أجلها إلى مستشفى « هرمل » بمصر القديمة ومكثت به طول هذه المدة ، وأنهم (أقارب المريضة لا أطباء المستشفى) يئسوا من شفائها ، فنقلوها لتموت بين أولادها فى قرية قريبة من قرية الطبيب فرآهم الحاج سيد ، وكان ينتمى إليهم بصلة قرابة غير بعيدة ، فأشار عليهم أن يعرضوها على هذا الطبيب المبارك اليد الميمون النقيبة .

بدأ فحصه ، فوجدها فى منتصف العقد الرابع من عمرها ، ووجدها فى حالة هبوط شديد ، حرارتها أقل من الحرارة الطبيعية ، ونبضها لا يكاد يعد لسرعته وضعفه . وحين وضع سماعته على قلبها ، سمع أصواتاً

خافتة لا تكاد تميزها أذنه ، وفحص جسمها كله . فلم يستطع أن يعثر على شيء ينير أمامه الطريق . وكانت المريضة فى غيبوبة لم تذكر له شيئاً من شكواها ولم تطل حيرته ، فقد ذكرت له قريبتها الملازمة لها ، أنها تتألم كثيراً إذا نامت على جانبها الأيسر . وبدأ يدقق الفحص فى هذا الموضع ، فاستطاع أن يتبين فى هذه الأكداس من الشحم واللحم ، وتحت ثديها الذى يكفى لإرضاع ستة أطفال ، شيئاً من الورم شائعاً فى هذه المنطقة غير مصحوب باحمرار ولا محدد بحدود . وضع فيه إبرة . . . استنفد الجلد وما تحته من شحم طول الإبرة ، وحين امتص بمحقنه لم يجد شيئاً . ووجد فى غلايته إبرة «ستوفايين» طويلة فاستبدلها بإبرته الأولى ، وأرسلها إلى آخرها فى نفس الموضع . فشعر فى الملليمتر الأخير منها ، أن مقاومة الأنسجة قد خفت ، وأنه يخترق منطقة أقل مقاومة . وامتص بمحقنه فلم يجد شيئاً . وكرر العملية عدة مرات ، حتى أوشك أن ييأس . ولم يجد بعيادته إبرة أطول . . فحاول محاولة أخيرة ، فوجد كمية من الصديد تملأ محقنه ، فقرت بها عينه . . واتجه إلى أقاربها وأفهمهم أن هناك خراجاً غائراً تحت عضلات الصدر ، وأنه يجب أن يفتح ، ولكن حالتها العمومية قد لا تتحمل هذه العملية ، برغم بساطتها فأصروا على عمل العملية ، مادام فيها بصيص من الأمل الذى فقدوه تماماً منذ فكروا فى نقلها من المستشفى . ولكنه تردد ، وطال تردده ، فقد خاف أن تنتهى حياتها على الترابيزة ، وينطلق فى عيادته صوت قريبتها نائحة مولولة . . وكانت تبدو قوية البنية ،

عالية الصوت . . ويخف إليها نساء القرية مجاملات بأصواتهن المفزعة . وكاشف بمخاوفه الحاج سيد ، فطمأنه أن شيئاً من هذا لن يحدث . وأنهم يعلمون أنها ميتة لا محالة ، ولكنها محاولة قد تنفع .

وجهز نفسه وآلاته ، ووضع طاقية البنج على وجهها ، بعد أن حقنها بكل ما بعيادته من منبهات للقلب . وسكب بضع قطرات من الأتير ، وأعمل مشرطه فى هذه التلال من الشحم ، حتى وصل إلى العضلات ، فقطعها . . وتدفق سيل من الصديد على مكان العملية وعلى المريضة وعلى الطبيب وملابسه . وانتهى من العملية ، والمريضة لا تزال على قيد الحياة . وسارت نحو الشفاء بخطى سريعة ، لتكتب له نصراً جديداً ، ولتنثر حوله ضجة كبيرة ، وتقوم دنياهم الصغيرة فى قريته وما جاورها وتقعد ، على أحاديث عجيبة . يقول قائل : لقد أدركها بعد أن حشرجت روحها وبلغت التراق ، فردها عليها . . ويقول آخر : لقد يئس منها كل أطباء القاهرة وقرروا أن لا أمل فى شفائها . . ويفتن الرواة والمحدثون فى ابتكار صور للحادثة ، لا تمت بسبب واحد إلى الحقيقة ، ولكنها تكسو الطبيب ثياباً قشيبة من البطولة والعبقرية ، وينظر هو إلى ما فعل ، فيجد أنه لم يزد على أنه فتح خراجاً .

إذن هى العناية الإلهية التى نظمت له هذه العقود وضفرت هذه الأكاليل من الغار . وأحس أن معاهدة صداقة عتيدة قد انعقدت بينه وبين الحظ ، فواجه المستقبل قويًّا جريئاً ، ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر .

٦

أول سبتمبر.. .؟

حضر لعيادته منذ ثلاثة أيام المعلم عبد العاطى ، وهو عامل قديم من عمال الشركة الأجنبية التى تسيطر على القرية وعنده فتق أربى مزدوج ، وطلب أن تعمل له العملية ، ولكنه لم يساوم فى الأجر بقدر ما ساوم فى عدد الأيام التى سيقضيها فى سريره . وعندما سأله الطبيب عن السر فى حرصه على ذلك ، علم منه أن هذه الأيام سيخصم أجرها من مرتبه . سأله : لم لا تأخذ إجازة مرضية فأخبره أن الإجازات المرضية لا تعطى إلا من طبيب الشركة الفرنسى وهو لا يعطى هذه الإجازات إلا لمن يعالجهم هو .

فأخبره الطبيب أنه كفيل أن يحصل له على إجازة مرضية بأجر مدة علاجه كلها . وكتب شهادة أرسلها للدكتور دوران : خلاصتها أن عملية فتق مزدوج ستعمل باكر للمعلم عبد العاطى سيحتاج إلى خمسة عشر يوماً راحة فى السرير . فردها له ، واعتذر عن إمكان اعتماد الشهادة اعتذاراً جافًّا . .

فقام من فوره إلى مدير الشركة وكان يهوديًّا قميئاً – وأدخل فى غرفته الفخمة فشرح له الموضوع . فرد عليه : بأن هذه هى نظم الشركة منذ

إنشائها ، ولا سبيل إلى تغييرها .

قال له : يستطيع طبيبكم أن يحضر للعيادة ويكشف على المريض ، فرفض .حاجه وجادله ، وقال له : إنه طبيب الحكومة التى تستظلون برايتها ، وأن شهادته تكفى أحياناً لإرسال رجل إلى المشنقة .فرفع كتفيه ، وكرر رده الأول . وقال الطبيب : إنكم بذلك تظلمون عمالكم المساكين . وطبيبكم لا يشتغل بالجراحة ، وليس عدلا أن يدفع العامل نصف أجر إجازته لطبيبكم الذى يتقاضى خمسين جنيهاً شهريًّا خلاف عمله الخاص – وكانت هذه هى القاعدة فلم يرد . فسلم وخرج . وقد وجد أن الرجل قد استقبله استقبالاً غير كريم ، ورده ردًّا غير جميل . وكان فى مناقشته معه « خواجة » يكلم واحداً من أولاد العرب . لقد ثارت نفسه وهم أن ينفجر أكثر من مرة . ولكنه اكتشف أن به ضعفاً نحو هذا اليهودى المتعجرف ، ذلك أنه كان أباً لفتاتين انعقد لهما لواء الجمال بالمنطقة ، وكان الطبيب قد التقى بهما فى ملعب التنس عدة مرات ، ولعب معهما أكثر من مرة . لهذا كظم غيظه ، ولكن الدم كان يغلى فى عروقه غلياناً . واستعرض بينه وبين نفسه حالة هذه الشركة الأجنبية ، فوجدها تكيل بكيلين ، توفر للخواجة كل أسباب الرفاهية والنعيم : من فيلات أنيقة ، إلى مرتبات ضخمة إلى عمل سهل ميسور . وتوفر للمصرى أشق أنواع الكد والكدح مقابل قروش لا تكاد تقيم الأود . وإذا رأيت أحد عنابر هذه الشركة ، وقد حشر فيها مئات من

هؤلاء العمال البائسين ، يتصببون عرقاً أمام نيران الأفران وفى وقدة الصيف القاسى ، يرتدى معظمهم غرائر قديمة – علمت أن المصرى غريب فى وطنه ، مضطهد فى بلده ، وأن خيرات الوطن تستمتع بها هذه الحثالة من الأجانب الذين لفظتهم الشواطئ طلاب قوت . فأمسوا فى ظل الامتيازات البغيضة هم السادة ، وتنكروا للبلد الذى كسا عاريهم وأطعم جائعهم وأمن خائفهم .

استعرض هذه المأساة فبيت فى نفسه أن يكون حرباً على هذه الشركة اللعينة وأن يضع فى سبيلها من العراقيل كل ما فى طوقه أن يضع ، وكان يعلم أنه أمام خصم قوى ، فرئيس الحكومة فى ذلك الحين ، ظهيرها وسندها . ولكنه صمم أن ينطح الصخرة . حتى ولو أوهنت قرنه ، وليكن ما يريده الله .

* * *

٧

تركت طبيبنا الشاب موزع القلب مشتت الفؤاد بين توفيقه فى عمله فى هذه القرية الصغيرة وبين هذه الشركة الأجنبية التى تجاهلت وجوده كما تجاهلت كل ما هو مصرى.هل يصطدم بها دفاعاً عن كرامته وقوميته أو يخلد إلى الدعةوالراحة قرير العين بدخله الكبير من عيادته الناجحة .

فكر وقدر وقضى أكثر من ليلة مسهد الجفن ، وأخيراً حزم أمره وصمم أن يصطدم بهذه الشركة وأن يضع فى سبيلها من العراقيل كل ما فى طوقه . وهأنذا أفتح مذكراته لأتابع تلخيصى لها :

١٠ سبتمبر

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هواناً بها كانت على الناس أهونا

أفضى بدخيلة نفسه إلى هذه الطائفة المتواضعة من إخوانه الخلصاء فكلهم أشار عليه أن يتروى ويتئد فلن يستطيع أن ينال من بطش هذه الشركة وبأسها الشديد ، وذكروا له أن كلمة واحدة من مديرها العام بالقاهرة تكفى أن تطوح به إلى مكان ناء مجهول من أقاصى القطر . فهو الصديق الحميم للدكتور . . . رئيس الصحة فى ذلك الحين . ولكنه وجد أن مرتبه لا يقاس بدخله من عيادته ، وأنه إذا تحرج أمره فى استطاعته

أن يستغنى عن وظيفته بعد أن أصبح اسمه موطد الدعائم وأصبحت ثقة الناس به ثابتة الأركان وأصبح يثق فى حظه وفى عناية الله التى تكلؤه وترعاه . ومكث يترقب الفرص ويتربص بهم الدوائر . وتغيرت حياته من صفاء ودعة وراحة نفس ، إلى قلق وهم وعدم استقرار .

ماذا يستطيع هذا الضعيف المنفرد أن يصنع لهذه المؤسسة العتيدة التى تظاهرها أموالها ونفوذها وسيطرتها على رجال الحكم جميعاً . ثم إن تحقيق العدالة الاجتماعية الدامية الجروح فى مصر . ليست رسالته ولا بعض شأنه ، وأنه فى غمرة من هذا الضيق والقلق الذى أقض مضجعه حتى كان يوم ٢٠ سبتمبر .

كان عائداً من سباحته اليومية فى النيل وكانت رياضته المحببة بعد إذ حرمته عيادته أن يأوى إلى أحد المصايف – حتى رأى ماسورة كبيرة تصب مياها قذرة فى النهر أمام مصنع الشركة – علم أنها ما سورة العادم – خف إلى مكتبه جذلان فرحا وأملى على كاتبه رسالة للشركة يطلب فيها أن ترفع هذه الماسورة بمجرد تسلم الخطاب . وإلا فهو يحمل الشركة مسئولية تلوث مياه النيل وما يتلوه من تعرض جميع البلاد التى تل قريته على مجرى النهر لكثير من الأمراض الوبائية . ويرجو الشركة ألا تضطره لاتخاذ الإجراءات القانونية لرفع هذه الماسورة عنوة

٢١ سبتمبر

حضر لعيادته فى الصباح الباكر باشمهندس الشركة – وهو رجل فرنسى فارع الطول يوشك أن يكون المدير الفعلى للشركة ومعه باشكاتب الشركة – وهو رجل سورى واسع الحيلة غامض الأساليب يسيطر بذكائه على كل الرؤساء – ولم يفرغا من تناول القهوة حتى بدأ حديثهما عن رسالة الأمس – ذكر الباشمهندس أن هذه الماسورة معدة لمياه تبريد الماكينات وأن رفعها يعنى تعطيل الشركة وغلقها وبالتالى حرمان القطر كله من مادة أساسية من مواد الغذاء ، وقال له الطبيب : إنه ليس مسئولا عن شيء من هذا ولكنه مسئول عن وقاية البلاد من خطر الأمراض المعدية ، وأن واجبه يحتم عليه أن يسلك جميع الطرق لرفع هذه الماسورة التى تكفى فضلات مريض واحد بالتيفود أو حامل للمرض – إذا مرت بها – أن تنشر المرض فى بلدة بأسرها – وقال الباشمهندس إن المياه التى تصب من الماسورة ساخنة إلى درجة الغليان وأنها غير متصلة بأى مرحاض ، وطال بينهما الأخذ والرد وتشعب الحديث حتى وصلت نهايته إلى السؤال عن رخصة المصنع ؟ وقاموا جميعاً إلى مقر الشركة يبحثون عن الرخصة ، واتضح أن المصنع صدر به دكريتو خديوى انتهى منذ ثلاث سنوات وأن المصنع يدار بغير ترخيص منذ انتها الدكريتو.

وقام طبيبنا منتصراً مزهوًّا بعد أن رأى فى وجوههم الضعف

والاستكانة ، ليحرر للمصنع محضراً يطلب فيه من المحكمة الغلق للإدارة بدون رخصة .

٢٧ سبتمبر

الحوادث تتوالى مسرعة ممسكة بعضها برقاب بعض . ذهب الطبيب للكشف على متوفى فوجد أن به خراجاً تحت الإبط وأن مدة مرضه ثلاثة أيام فقط ، وأنه حضر من ديروط منذ سبعة أيام ووجده عاملا يناهز عمره الثلاثين قوى البنية . فاشتبه أن يكون المرض طاعوناً ، وبدأ يتخذ كل اجراءات الطاعون : وكان منزل المتوفى يجاور مبانى الشركة فشملتهم الاجراءات ، ويتضح أن طبيب الشركة عاده فى منزله مرتين ، ويجدها فرصة سانحة أن يجرح كبرياء هذا الفرنسى المتعجرف .

٢٩ سبتمبر

حضر طبيب الشركة لمكتب الصحة ليؤكد أنه لم ير حالة طاعون فى حياته ، وأنه لا يعرف شيئاً عن وجوب التبليغ ، ويعتذر اعتذاراً شديداً ويذكر الزمالة وحقوقها . ويخيل لطبيبنا أن محضر المخالفة الذى حرره ضد الطبيب سيرسله إلى المشنقة رأساً . ويقارن بين ضعفه واستخذائه اليوم وبين غطرسته وكبريائه بالأمس ، فيعلم أن الناس تحترم من يحترم نفسه ويعد الزميل بالمساعدة بعد أن يؤكد له أنه سيبلغ عن كل حالة يشتبه فيها مهما ضعفت الشبهة .

٥ أكتوبر

أصبح الطبيب فى نظر الشركة ورجالها شيئاً ، وبدأوا يتوددون ويتقربون إليه ، وها هى تى حفلتهم الراقصة بالأمس كاد طبيباً فيها أن يكون ضيف الشرف . إن المدير يخصه بالترحيب والباشمهندس يحمل إليه أطيب ما فى مائدة الطعام .

أين هو اليوم منه فى الحفلة الماضية التى لولا وجود ضابط النقطة معه لما أعاره أحد أى اهتمام .

أكتوبر

يبلغ الطبيب الفرنسى طبيبنا عن حالة تيفود وردت نتيجتها إيجابية من المعمل ، وهى لطفل اسمه سافافا سيليدس ، ويذهب طبيبنا لا تخاذ الاجراءات الصحية ، ويعترض والد الطفل ويرفض أن يعزل ابنه فى خيمة . ويحضر جناب المدير بجلال قدره يرجو الطبيب أن يتساهل فى مسألة العزل ويتخذ ما شاء من إجراءات أخرى ، ويجد الطبيب أن عزل الطفل فى منزله غير ممكن ، لعدم توفر الشروط الصحية المطلوبة ، فيأبى ، ويلح جناب المدير ومن حوله كبار رجاله الخواجات فى التوسل والرجاء . ويصر الطبيب على الرفض والإباء . ويقترح الباشكاتب أن يؤجل العزل يوماً واحداً عسى أن يتسنى لهم أن يأخذوا رأى المدير العام — خصوصاً بعد أن صرح لهم الطبيب أن هذه الإجراءات الصحية لا

استثناء فيها وأن أيًّا منهم سيتعرض لهذا الإجراء القاسى إذا أصابه مرض معد – ووافق الطبيب على التأجيل . ولكن بلابله قرت ونفسه اطمأنت فقد اضطر هؤلاء الخواجات أن يحنوا رؤوسهم ، وانتزع مكانته وكرامته وخلص بقوميته ومصريته من بين هذه السحب الكثيفة من الغطرسة والكبرياء . وأحس أنه أصبح شوكة فى جنوبهم سيحسب لها ألف حساب .

١١ أكتوبر

بكر بالذهاب إلى القاهرة ، وقابل مدير الأوبئة وعرض عليه المسألة . وقابل حضرته رئيس المصلحة ثم خرج ليخبره ألا يتخذ أى إجراءات حتى تصله من المصلحة التعليمات . وعاد إلى قرينه ليتلقى بعد عودته بساعتين اثنتين برقية نصها : يكتفى بما اتخذه حضرة طبيب الفوريقة من إجراءات فى حالة المريض سافا فاسيليدس – وعاده الغم والهم فهاهى تى المصلحة تخذله . وأسرع إلى وكيل مكتب التلغراف وطلب إليه أن يخفى خبر هذه البرقية . وقام إلى الشركة وقابل جناب المدير الذى أسرف فى الترحيب به ، وأخبره أن برقية وردت له من المصلحة بوجوب عزل المريض ، ووجم المدير ثم قال لم لا نحل مشاكلنا بأنفسنا ولا نلجأ للقاهرة ؟

وقال له الطبيب إنك كنت البادئ بالتعنت وركوب الرأس ، وذكره

بمقابلته الأولى ، فأبدى أسفاً شديداً . وبعد لأى رضى الطبيب أن يعزل المريض فى داره على أن تتخذ إجراءات كثيرة لجعل الدار صالحة للعزلُ ، وأبدى المدير شكراً وامتناناً لهذه اليد التى لا ينساها للطبيب ، وانصرف صاحبنا وقد صنع من هزيمته وخذلانه نصراً مبيناً . وذكر فى أوبته أبيات الفند الزمانى :

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن دنّاهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة إذعان
وفى الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان

٨

١٢ أكتوبر سنة ١٩٣١

انقضى ما بينه وبين هذه الشركة الأجنبية العتيدة من خصومة على خير ما تنقضى الأمور . وخرج من محنته سليم العزة صحيح الكرامة . وبلغ انتصاره أوج العظمة والذروة حين تلألأت أنوار الكهرباء فى منزله وعيادته ومستشفاه ومكتبه الحكومى ، إذ قامت الشركة بمد الأسلاك وتوصيل التيار على نفقتها الخاصة . لقد كانت تعتز بنورها الكهربائى أيما

اعتزاز حتى انها رفضت توصيله لمكتب هندسة الرى الحكومى عشرين عاماً كامـــلة برغم ما بذله مهندسو الرى فى هذه الفترة الطويلة من رجاء وتوسل وإلحاح ، وبرغم ما بينها وبين الرى من صلات تختص برى أراضيها فى هذه المنطقة . وأن كثيراً من موظفيها الذين يقيمون فى منازلها الخاصة - وخصوصاً المصريين - لم يسعدهم الحظ أن يشرق فى منازلهم هذا النور ، وكانت الشركة تتذرع فى رفض طلباتهم بمختلف التعلات والمعاذير . ثم تتخذ - حين يحرجها رجاء كبير يهمها رضاؤه - العلة الخالدة التى لا تقبل التنفيذ وهى أن قوة الماكينة لا تستطيع أن تزيد مصباحاً واحداً . ثم تبذل الوعد - الذى لم يتحقق مرة واحدة - وهى أنه ستبدل هذه الماكينة بماكينة أكبر وعندئذ ستلبي طلب الطالب وتحقق رجاء الراجى .

وعجب الناس أشد العجب ، وخـلب أبصارهم بريق الأنوار فى أربعة منازل لا تملكها الشركة ، بل تقع فى قرية يفصلها عن مبانى الشركة مسافة ليست قصيرة ، برغم ما يعلمون من خصومة مشتعلة الجذوة بين الطبيب والشركة . ولكنهم فرحوا وأعجبوا بطبيبهم المصرى الصغير أن ينتصر فى هذا الميدان الذى انهزموا فيه جميعاً بل ذاقوا فيه ألواناً من الخسف والهوان .

لقد رأوا بعيونهم هذه الشركة الجبارة بقوتها وجبروتها ونفوذها الطاغى وسيطرتها على رجال الحكم جميعاً . تخر صاغرة وتتملق هذا الطبيب

الضعيف – إلا فى قوة إيمانه – وتبذل فى سبيل رضائه ما لم تبذله لأحد غيره .

أما صاحبنا فبعد أن وافق على مد النور إلى منزله * بعد إلحاح من باشمهندس الشركة – وبعد أن فرح برؤية النور فى هذه القرية الحقيرة . بدأت الوساوس تنوشه وتقض مضجعه وتؤرق جفنه .

سأل نفسه أيعتبر هذا نصراً أم خذلاناً أن تشتريه الشركة وتشترى مثله العليا بهذا النور الذى كلفها مائة وخمسين جنيهاً – على ما علم فيما بعد ؟!

ألم يكن صمم أن يحارب طغيان الشركة وعدوانها على عمالها واحتقارها للقومية المصرية ؟! .

وطال الجدل بينه وبين نفسه حتى أقنعها أن هذا نصر على الشركة لا شك فيه . لقد أرغمها وأذل كبرياءها وأصبح موضع احترامها وتقديرها . بل لقد لبست ثوب الزلفى إليه ، وطأطأت رأسها وجعلته نافذ الكلمة مهيب الجانب لا يرد له رجاء . ويعلم الله ، أنه قد رفع بمركزه هذا الظلم عن كثيرين من العمال الفقراء . وحسبه هذا تحقيقاً لمثله العليا فى حدود طاقته وإمكاناته . وحسبه هذا تمكيناً لعقيدته فى الله وفى أن للحق صولة يخر أمامها كل عات جبار ، وفى أن مثقال خردلة من الإيمان يكفى أن يزحزح رواسى الجبال كما يقول الإنجيل .

٢٠ أكتوبر

عادت حياته رخية هنية لينة ، وعاد إلى عمله وعيادته يواصل فيهما عمله ليلا ونهاراً ، قويًّا موفقاً ، تدر عليه أخلاف الرزق وينمو رصيده فى البنك شهراً بعد شهر .

٢٥ أكتوبر

حضر إليه فى عيادته منذ ثلاثة أيام طبيب الشركة الفرنسى وروى له قصة عجيبة ذكر فيها أن قسيس الكنيسة الجديدة الأب ك . ك . الذى حضر منذ شهر ، يحترف مهنة الطب ويدعى أنه طبيب وهو ليس بطبيب ، ويزدحم منزله كل يوم بأسراب النساء والفتيات وأنه يختص الحسان منهن دائماً بعلاج طويل ، وأن عنده جهازاً كهربائيًّا هو كل عدته فى طبه ، يدلك به السمينات لينحفن ، ويدلك به النحيفات ليسمن ويمر على ذوات الشعر الأكرت لينعم وتنهدل خصائله ، ويمر به على ذوات الشعر الناعم ليتموج ويشتد عوده . ويمر به على الجلد الخشن فيرتد نضراً لا معاً .

شاقه الحديث فقام بعد انصراف الطبيب إلى الكنيسة لزيارة الأب ك . ك ، واستقبله فى منزله رجل فى أوائل العقد السادس من العمر بين الطول والقصر ، ممتلئ الجسم تكاد تنطق أسارير وجهه بالقوة والعافية فى عينيه بريق مخيف ، وفى أنفه المدبب الكبير وفى لحيته الصغيرة الحمراء ، وفى لباسه الواسع الفضفاض ، وفى غطاء رأسه الذى لا يكاد يغطى قمة

الرأس ما يوحى بالمهابة والجلال . أحسن استقباله وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة فرنسية خفيفة وفتح له زجاجة من شراب سائغ المذاق لا يدرى للآن أهو شمبانيا أم نبيذ جيد ، وملأ له كوباً كبيرة وطال بينهما حديث فهم منه أنه قدم من شنغهاى حيث أقام عشر سنوات وأنه كان يدير أكبر مستشفى هناك وأراه عدة صور له مع المرضى والممرضات فى عنابر المستشفى . ثم أراه بضع نسخ من جرائد شنغهاى وفيها كلمات طيبة عنه وعن الخسارة الكبيرة التى ستلحق البلد كلها عامة والمرضى خاصة بسفره من الصين ، وودوا جميعاً لو راجعت إدارة الإرساليات قرارها بنقل هذا العالم الورع ، وسردت كثيراً من خدماته للمستشفيات والكنائس .

وصب له كوباً أخرى ولنفسه طبعاً حتى أتيا على الزجاجة . وسأله الطبيب عن الجامعة التى درس فيها الطب ، فأخبره أنه درس فى بروكسل ، وأنه بلجيكى من عائلة ثرية ، وأنه أنفق ثروته كلها فى سبيل الفقراء ، وأنه يتعاطى الطب ولا يتقاضى عليه أجراً بالمرة ، وأنه نذر نفسه للخير والبر والرحمة بالفقراء ، وسأله هل يحضر فقراء لمنزله . فرد عليه أن باب منزله كباب الكنيسة سواء بسواء مفتوح لكل طارق وأنه لا يرد أبداً طالب علاج . وحين أخبره أن القوانين فى مصر تحتم أن يحصل على ترخيص بمزاولة المهنة من مصلحة الصحة ، وأنه يجب أن يجتاز امتحاناً قبل أن يحصل على هذا التصريح ، جزع أشد الجزع وعجب أن يطبق عليه مثل هذا القانون ، وهو رجل الخير والبر والرحمة ، وسأل الطبيب

حلاً لهذه المشكلة ، فهو لا يستطيع أن يحبس عمله وطبه عن الناس . فأشار عليه أن يتصل بوزير بلجيكا المفوض ليجد له الحل . ورجاه أن يمتنع عن مزاولة المهنة حتى يجد له مخرجاً . وحين استأذن لينصرف طرق الباب فتاتان تبدو عليهما كل شيء إلا علامات المرض . ودخلتا وخرج هو وودعه على الباب الخارجى ، ورجاه أن يزوره كلما سمح له وقته ليتناول كأساً من هذا الشراب الجميل الذى استحضر معه صندوقاً كاملاً منه .

٩

٥ نوفمبر سنة ١٩٣١

ومن دعا الناس إلى ذمه ذمـــوه بالحق وبالباطل

كانت الشائعات التى أثارها سلوك الأب ك . ك . فى هذه القرية الصغيرة ، التى هبطها منذ قليل ، قد تأصلت جذورها فى أذهان الناس ، وأثمرت فى خيالهم قصصاً عجيبة لا يؤيدها منطق ، ولا يصدقها عقل ، وقوامها كلها ، الإغراق فى الفسق ، والمبالغة فى الإثم والفجور .

كان طبيبنا فى أصيل هذا اليوم ، فى طريقه إلى ملعب التنس ، وكان موقعه غير بعيد من الكنيسة ، إذ اعترض سبيله الأب ك . ك ، بذقنه الحمراء المدببة ، ووجهه المحتقن وأنفه الرومانى الأحمر ، وثوبه

الفضفاض ، وألح عليه أن يدخل لزيارته . وكان قد انقطع عنه منذ عدة أيام. مخافة أن تجرفه هو الآخر هذه الإشاعات المخيفة الطاغية . فالناس تتربص بالناس أثراً من ريبة ، أو ظلا من شك ، ليطلقوا لخيالهم العنان ينسج القصص والأساطير ، تفترس الأغراض وتنتهك الحرمات ، ويتناقلها الرواة فتفرخ تحت ألسنتهم وتتكاثر ، ويتمم كل راو ماغاب عن صاحبه لتتم حبكة القصة – وتخرج الرواية كاملة الفصول .

ونزل من سيارته ودخل مع الأب منزله ، فقد كان يود أن يذكر له ما يثار حوله فى الجو . واتخذ مقعداً قريباً ، وذهب الأب ليحضر زجاجة من الشراب وأخذ الطبيب يفكر كيف يمس هذا الموضوع مساً رفيقاً ، وبدأ بينهما حوار استهله الطبيب بقوله :

– ألست ترى من العسير أن يجمع الإنسان بين مهنة رجل الدين ومهنة الطبيب .

– لا أفهم ماتعنيه .

– أعنى أن مهنة رجل الدين ، المخلص لرسالته ، تستتبع دائماً حمد الناس ورضاهم ، فى حين أن مهنة الطبيب المخلص لرسالته أيضاً ، تتفرق الناس فى شأنها ، فهم حامدوه إذا أصاب ، قادحوه إذا أخطأه التوفيق ، وحين يتعرض رجل الدين لقدح الناس وذمهم ، يفقد جلاله وهيبته ، وحينئذ تذهب رسالته الأولى ، ودعوته إلى دين الله أدراج الرياح .

– لعلك لا تعلم ، أن مهنة الطب كانت منذ العصور الأولى ، صناعة الكهنة ورجال الدين ، وأنا أؤمن بأنها يجب أن تكون وقفاً عليهم ، إذا أراد الناس أن يصونوا أعراضهم . أخبرنى أى وازع يرد الطبيب الشاب ، حين يخلو بمريضته الحسناء فى غرفته الموصدة الأبواب ؟

– هناك أكثر من وازع ، القسم الذى أقسمه الطبيب ، ثم هناك شرف المهنة وهيبتها ، ثم خلق الطبيب ، ثم خوفه من اللعنة التى تصيب كل طبيب يزل أثناء عمله ، هذه اللعنة التى تلازمه طول حياته ، وتلاحقه بالخيبة والفشل أنى سار ثم هناك الفارق الذى يميزه عن رجل الدين الراهب ، إنه ليس مكبوت الغريزة ولا مقيد الحرية خارج عيادته .

– أظن أن كل هذه الأدلة التى ذكرتها ، أدلة نظرية بحتة ، ولا يستطيع أى منها أن يقف أمام الغريزة الجنسية ، إذا تحركت . وهذه زلات الأطباء المأجورين أكثر من أن تعد .

– إنك تناقض نفسك ياسيدى حين تضع للغريزة الجنسية كل هذه القوة الجارفة ، وأنت راهب استطعت أن تخرس صوتها فى أعماق نفسك إلى الأبد ، أو على الأقل هذا ما أرادته لك نظم الرهبنة ، التى يجوز أن تكون قد انتظمتك وأنت فى عنفوان شبابك . أما زلات الأطباء المأجورين ، التى ذكرت أن العد لا يحصيها ، فأحب أن أسر إليك أنك

وأنت تزاول المهنة لوجه الله وحباً فى الخير ، غير مأجور من الناس ، لم تسلم من ألسنتهم ، التى بدأت تتحرك بما يسوءك .

وهنا أصابت الرجل رعدة ، واحتقن وجهه ، وعب البقية الباقية فى كأسه وقال :

– أنا لا يهمنى أبداً مايقوله الناس ، وقد قضيت فى الشرق زهرة شبابى وخلاصة عمرى ، وأعلم أنه موطن الإشاعات ومهدها .. تفرخ وتنمو فى أرباضه بأسرع مما يتصور العقل .

– وإذا كانت الألسنة المنطلقة بالسوء كلها لغربيين ، من ناكرى الجميل الذين تنتفع عائلاتهم بطبك وعلمك .

– لعلهم تأقلموا من طول مقامهم فى الشرق . . .

وقطع حديثه طرق خفيف على الباب ، فهرع إليه ليستقبل الفتاتين بنفسيهما اللتين رآهما عنده الطبيب فى المرة الأولى . ودخلت كبراهما تتهدل خصائل شعرها الفاحم على جبينها الأبيض الوضاء ، فسلم عليها الأب سلاماً حارًا ، وضغط على يدها بكلتا يديه . وربت على كتفيها حتى أوشك أن يحتضنها بين ذراعيه . وكانت فاجرة النظرة داعرة الخطوة ، دخلت تتأود وتتثنى بقوامها المياس . أما الصغرى وكانت لم تتجاوز ربيعها السادس عشر ، فكان لها رأس وجيد كأنهما لإله من آلهة الإغريق أو قل تمثالاً تتقطع دونه أعناق مايكل أنجلو ورافائيل وبرنينى وغيرهم من عباقرة المثالين . دخلت تمشى على استحياء ، فى مشيتها حيرة الغريب . وخشية المريب .

وجلستا ، وإلى جوار الكبرى جلس الأب لك ، ومال عليها كأنه عاشق مدله أتيح له الوصل بعد هجر طويل وحين ذكرت له أنها أحست منذ ساعات بألم فى صدرها ، امتدت أصابعه الخمس إلى صدرها تتحسسه ، وكأنها خمس حيات جائعة ، ولم يرفعها إلا بعد أن رفعتها هى بكلتا يديها ، ثم قال سآتيك بدواء يقتل هذا الألم حتى لا يعودك أبداً . وقام إلى زجاجة شراب جديدة فضها وملأ لها كوباً وملأ للصغرى كوباً تشربها بعد طول تمتع وإباء . وامتدت بينهم حملة أحاديث تافهة ، وأصابع الأب لم تنقطع أبداً عن ملامسة فتاته ، فتارة يربت على وجنتيها وتارة على ظهرها ، وتارة يضعها على فخذها ، وكلما أفرغ فى جوفه كأساً من شرابه ، زاد احتقان وجهه وزاد بريق عينيه وزادت حركات أصابعه حتى خرج تماماً عن نطاق وقاره ، وأحس الطبيب أنه فى مجلس شراب ، فى بيت من بيوت اللهو ، وكان الوقت يمر سريعاً فقد مالت الشمس للمغيب ، وسيارته واقفة بالباب ، تشهد الرائح والغادى أنه يشترك مع الأب لك . فى عبثه ولهوه . وزاد خوفه من ألسنة الناس ، فقام يستأذن فى الخروج وكانت الخمر قد لعبت بلب صاحبه فأمسك به وأقسم عليه وألح ، ولكنه استطاع أن يخرج ، وترك الأب لاتكاد تحمله ساقاه ، ونذكر صورة أخرى من غرام الشيوخ فى قصر كليوباترة حين هام بها الكاهن الشيخ ، وخلد هذه الصورة شوقى بأبيات لعلها أروع ما قيل فى غرام الشيوخ :

أما الشباب فقد بعد ذهب الشباب فلم يعد
ويجى أمن بعد السنـ ـين وقد مررن بلا عدد
أو بعد طول تجاربى ومكان علمى فى البلد
تجنى الحسان على ما لم تجن قبل على أحد
مالى جننت فصرت أتـ ـهم الشباب وأضطهد
لم ألق رأساً فاحماً إلا حملت له الحسد
ووجدت لاعج غيرة بين الجوانح يتقيد
فكان ظلمة شعره فى مقلتى هى الرمد
وكأنما سرقت ذوا ئبه شبابى المفتقد
لو ان لى ولداً فما ت لما بكيت على الولد
حذراً وخوفاً أن يكو ن بها تعلق أو وجد
شك يعذب مهجتى إن المشكّك فى كبد

٦ نوفمبر ١٩٣١

اليوم فقط ، أسدل الستار على الفصل الأخير من هذه الرواية المثيرة ، واختفى راسبوتين مرة أخرى من هذه القرية الصغيرة . فقد ذهبت فى الصباح الباكر إلى نقطة البوليس مدام ف . س وشكت لضابط النقطة ، من أن بنتيها خرجتا مساء أمس ولم تعودا طول الليل ، وبحثت عنهما فى مظان وجودهما فلم تعثر لهما على أثر ، وخيل إليها أنهما ذهبتا إلى

القاهرة عند بعض ذوى القربى ، ولكنها فوجئت صباح اليوم بأحد العمال يخبرها أنه وجدهما بجوار سور منزل الأب ك . مغشيًّا عليهما ، وبادرت الأم لتجد بنتيها لم تفيقا بعد من سكرة ثقيلة فذهبت بهما إلى نقطة البوليس . وسجلت دفاتر النقطة الواقعة ، التى بدأت منذ الغروب وانتهت عند مطلع الفجر . وكانت الصغرى ترويها دامعة العينين ، وتقف عندما أدركتها غاشية النوم على كرسيها الذى لم تتركه ، ثم تستأنف حديثها عندما أيقظها الأب ليلتقى بها وبأختها فى عرض الشارع .

وأبلغت الحادثة إلى مركزالبوليس ، وفى الساعة العاشرة صباحاً وصلت سيارة من القاهرة من إدارة الإرساليات لتنقل الأب ك ومعه متاعه إلى غير رجعة مشيعاً بالسخط واللعنة .

١٠

١٠ نوفمبر سنة ١٩٣١

انتهى من فحص مريضه الأول فى صباح هذا اليوم ووصف علاجه وغذاءه ودق جرسه ليدخل المريض الثانى ، وأدخل عليه رجل فى منتصف العقد الخامس من عمره مديد القامة عريض المنكبين ، مفتول العضلات تكاد تنطق معارف وجهه – عيناه الصغيرتان المستديرتان كعينى الصقر ، وشاربه الطويل الذى تتجه شعراته كلها إلى أعلى وكأنها أسلاك من

حديد ، وهذه الغضون المبكرة فى جبهته وتحت عينيه – تكاد تنطق كلها بالقسوة والصرامة بل بالشر . دخل وفى أثره امرأة تصغره قليلا ، قد جللها السواد من رأسها إلى قدميها ، ترتدى مايرتديه نساء الطبقة الوسطى من الفلاحين من ثياب سوداء طويلة الذيل والأكمام مقفولة الصدر وتلتف بذلك الثواب الحريرى الأسود الكثير الكشكشة والتغضنات والذى يسمونه « الملمس » وتغطى وجهها بنقاب أسود ودخلت خلفهما فتاة فى مقتبل الشباب وكانت هى المريضة . وأملى عليه اسمها عالية « ح » وسألها عن شكواها . قالت لا أشكو شيئاً ،قال لها لم حضرت إذن ؟ قالت لا أدرى . ومالت أمها على أذن الطبيب تهمس : أريد أن تخبرنا هل هى حامل أم لا ؟ وبدأ يفحص الفتاة وقد راعه جمالها القروى الحزين وكان يزينها خال أسود على إحدى وجنتيها . ووجد رحمها متضخماً قليلا . وحين سألها عن موعد الطمث ذكرت أمها أنه تأخر عن ميعاده هذا الشهر . وأراد أن يمتحنها من الداخل فأبت وأبت أمها . وأخبرهم أنه لا يستطيع الجزم بكونها حاملا ، ولكنه يستطيع ذلك بعد شهر . ونطق أبوها للمرة الأولى منذ دخل العيادة : « وهل فى استطاعتنا أن ننتظر شهراً كاملاً ؟ » ورأى الشر على قسمات وجهه صارخاً عالى الصوت ، فهمس فى أذن أمها هل هى متزوجة ؟ قالت بل عذراء . فأعاد عليها الكشف وتصنع الدقة والتؤدة ثم أخبرهم أنها غير حامل ،وأخذ أبوها يحاجه ويجادله واخترع الطبيب أسباباً كثيرة تؤكد عدم الحمل وانصرفوا وقد خيل إليه

أنهم اطمأنوا وأنه أنقذ الفتاة من خطر محقق .

ويستمر فى عمله فى نفس اليوم حتى يدخل المريض الأخير ، فإذا به من نفس القرية التى حضرت منها عالية . ويتبرع بعد أن ينتهى من الفحص أن يخبر الطبيب بقصة هذه العائلة فيذكر له أن « ح » خرج من اللبمان من أسبوعين اثنين حيث قضى حوالى عشرين عاماً . وأنه كان ابناً وحيداً لرجل من ذوى اليسار فى القرية ، أى الذين يملكون بضعة أفدنة وأكثر من جاموسة واحدة ، توفى وابنه فى المهد لم يدرج من حجر أمه . وترملت عليه أمه ، وبذلت فى سبيله كل حياتها ، وشب الطفل وترعرع تحت سماء الريف الصافية وتحت شمسه المشرقة . ونجا من الأمراض الطفيلية ومن نقص الغذاء ، ليجد نفسه أقوى شاب فى القرية . . يستطيع أن يرفع أردباً من القمح بغير كبير عناء ، ويستطيع أن يصرع أى شاب من أنداده فى حلقات السمر التى تنعقد فى القرية تحت ضوء القمر . وذاع صيته فى القرى المجاورة ، ونازل فتيانها فى الأسواق والموالد فغلبهم جميعاً . وهيأت له هذه القوة البدنية الخارقة مكان الزعامة من شباب القرية وهو لم يتخط حينذاك العشرين من عمره . وبدأ ينزلق رويداً رويداً حتى احترف الشر وتاجر فى الجريمة .

وجمع حوله عصابة من الأشرار تسطو على القرى المجاورة فتسرق المواشى ، ثم تعود فتردها لأصحابها مقابل جعل خاص . وأصبح اسمه يثير الرعب والفزع فى القلوب . وتزوج فى هذه الفترة من ابنة عم له ،

وولدت له ولداً وبنتاً فى عامين متتاليين . ولم يكن قد مضى على ولادة ابنته غير بضعة أيام حين خرج فى إحدى غزواته الليلية وتعرض له صاحب الماشية فأطلق عليه عياراً ناريًّا أرداه ، وقبض عليه وأخذت أدلة الإثبات بخناقه ، وبعثت به إلى الليمان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وتكفى هذه العشرون عاماً التى قضاها فى الليمان أن تصنع من ابنته عالية فتاة القرية الأولى بقدها الممشوق وبجمالها الساحر وببضعة الأفدنة التى تملكها عائلتها . . وتزدحم القلوب على هواها وتتكاثر الأيدى تطلب يدها ولكن أمها ترفض أن ترتبط فى شأنها بوعد أو ميثاق حتى يطلق سراح أبيها . ويوغر الصدور عناد أمها وإصرارها ، فتتحرك ألسنة الموتورين المردودين بالسوء . ويدفع الجمال ضريبته من سمعة الفتاة ، وتدور عجلة الزمن دورتها السريعة ويخرج أبوها من سجنه بين مواكب الفرح والسرور ، ليجد ابنه مسجى على فراش المرض قد أنشبت حمى التيفوس أظفارها فى كيانه ، ويقضى مع والده سبعة أيام يغالب المرض ، وينتقل إلى جوار ربه ، فتتبدل أفراحهم أحزاناً وتعود أغانيهم أصداء من الأنين والنواح .

وتخور قوى الرجل الصلد الذى مكث عشرين عاماً يضرب الصخر بفأسه القوية . فتذهب به زوجته إلى القاهرة ومعهم عالية ينشدون السلوى فى جوار أهل البيت .

وتتم قصة المريض ، وينصرف لشأنه. وأقلب صفحات الطبيب فى الثمانية الشهور التى تلى هذا التاريخ ، فأرى كلمات مبعثرة فى جملة تواريخ أستطيع أن أجمع منها بقية القصة .

حين هبطت العائلة القاهرة وأقاموا فى منزل صغير بجوار ضريح الحسين ابن على حيث كانوا يقضون فيه جملة نهارهم وبعضاً من ليلهم ، وحدث فى اليوم الثالث من هبوطهم القاهرة عقب تناولهم طعامهم فى مطعم صغير . أن أحست عالية بمغص شديد وقئ استعانوا عليهما ببعض العقاقير البلدية . ولكن أمرها استعصى عليهم ، فذهبوا بها إلى طبيب يونانى فحصها واستنتج من القئ ومن تضخم الرحم أنها حامل فزف إليهم البشرى . ولم يكن يدرى أنه يحطم كيان هذه الأسرة ويحفر بيديه لسعادتهم وهنائهم قبراً شديد الظلمة . بتسرعه وعدم تثبته .

وأسرعوا إلى طبيب النقطة حيث كان اللقاء الذى لم يبدد شيئاً من شكهم وقلقهم ، ويلجئون إلى داية القرية فتقف فى صف الطبيب اليونانى .

وتمضى بضعة أشهر ينسى الطبيب أمرهم . ويمر عليه ضابط النقطة ذات صباح ليصحبه إلى قرية قريبة للكشف على جثة غريق . ويجد جثة لفتاة قد استخرجت من بئر لساقية مهجورة . وقد بدأ التعفن الرمى يدب فيها ، احتقن وجهها إلى درجة الاسوداد . وجحظت عيناها وتدلى لسانها بين شفتيها . ويخبره العمدة أنها سقطت فى البئر قضاء وقدراً أثناء

ذهابها لأبيها فى حقله، وأنه لا يوجد شبهة ولا اتهام . وقد أبلغ أبوها العمدة بغيابها من يومين . ويوشك الطبيب أن يصدق كل ماقيل إذ أن العلامات الظاهرة على الجثة تؤيد أنها ماتت غرقاً .

ولكن نظرة أخيرة إلى وجهها تكشف عن خال أسود على إحدى وجنتيها تائه فى اسوداد وجهها . ويراجع اسمها فى إشارة البوليس فيجده عالية ح . ويثب إلى ذاكرته كل ماحدث فى عيادته منذ بضعة شهور ، ويذكر بوادر الشر الذى كانت تتأجج ناره على وجه أبيها ، ويدقق الفحص فى جوانب رقبتها ليجد آثاراً لسحجات ظفرية . فيخطر النيابة بشكوكه أن تكون الوفاة جنائية .

ويطلب إليه تشريح الجثة ، فيفعل . ويجد الفتاة عذراء طاهرة . . غشاء بكارتها سليم لم يمس ، ويجد رحمها متضخماً وبه ورم ليفى كبير فى حجم جنين عمره أربعة شهور ، ثم يجد أن سبب وفاتها اسفسكيا الخنق .

ويسرى الخبر بين جموع الفلاحين المحتشدين بالقرب من مكان التشريح . ويحضر أبوها ممتقع الوجه ذاهل اللب راجياً أن يرى بنفسه هذا الورم . فيريه إياه ، ويعيد عليه القول أكثر من مرة : إذن كانت عذراء . . ! ! ويرد عليه الطبيب بالإيجاب ، وتخور قواه ويندفع باكياً صارخاً كالأطفال ، ويقول : لقد قتلتها بيدى ، وتوضع فى يديه الأغلال عائدة به إلى الليمان . ويسدل الستار الأخير على هذه الأسرة البائسة المنكودة ، بعد أن ذهب كل ما بقى لها من أمل أدراج الرياح .

هذه قصة تتجدد على مسرح الحياة آناً بعد آن ، ضحيتها البريئة الطاهرة التى يشاء لها سوء حظها أن تنكب بهذا المرض – الورم اللبنى – وهى لاتزال عذراء ، ثم تنكب بجهل أهلها أو بجهل الطبيب .

الله للعذارى الطاهرات ، اللائى يذهبن طعينات الشرف جريحات السمعة وهن عند الله فى أعلى عليين .

١١

كان المفروض أن تستمر كتابة هذه المذكرات حتى تستوعب حياة الطبيب من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٥٠ وهى المدة التى احترف فيها مهنة الطب فى الريف .

ولكن ظروفاً قاسية اعترضت حياة الطبيب فصرفته عن الكتابة وعن الحياة جميعاً ، وأوشكت أن تزلزل إيمانه العميق .

وعاش منذ عام ١٩٦١ إلى اليوم يحاول أن يلم شتات نفسه ، ويكافح ليقى نفسه وأسرته ويلات الفاقة والحرمان ، حتى أدركته رحمة الله فانتصر على ما حاق به من ظلم .

هل تنفسح له الحياة وتسمح الظروف فيعود لاستكمال هذه المذكرات ؟

الله سبحانه وتعالى أعلم .

الكتاب القادم

السلام وجائزة السلام

عثمان نويه

رقم الإيداع	١٩٧٧ / ٤٩٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ — ٢٤٧ — ٨٦ — ١

١٣١ / ٧٧ ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)